جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

بقية أركان الإيمان

GAQD5163

كتاب المادة
Master Textbook

المحتويات

بقية أركان الإيمان

الإيمان بالملائكة (١)

عناصر الدرس

تعريف المَلك ودلالته من حيث المعنى اللغوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على النبي الهادي إلى صحيح العقيدة، للوصول لكمال الإيمان، وعلى آله وصحبه البررة الكرام، وبعد:

فإن العقيدة الإسلامية الحقة والتي يجب أن نؤمن بها، هي كل ما ثبتت بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ونلاحظ أن هذا منهج سلفنا الصالح في إثبات العقائد، فقد كانوا يثبتون عقائدهم في كل مما هو مشاهد أو غائب بالدليل من القرآن والسنة، وأن كل غيب في العقيدة جاء فهو صادق؛ لأنه جاء في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، وقد بلغه الرسول ﷺ لصحابته } فكانوا أكمل الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، وأعمقهم فكرًا وفهمًا واستيعابًا، فكانوا خير من سمع وخير من بلغ لمن جاء بعدهم.

إلا أن البعض من بني الإنسان على مدار التاريخ الإنساني يتكبر ويستنكف عن اتباع الرسل، الذين جاءوا بالخير الصادق وبالخبر الصادق، ويحاولون أن يعرفوا الحقيقة فيما وراء الكون المشهود، والمعروفة عند بعض العلماء بالميتافيزيقيا، يحاولون أن يعرفوا ما وراء الكون المشهود هذا بعقولهم، وفي هذا المسلك خطأ كبير؛ وذلك لأن العقول الصحيحة لا تخالف المنقول الصحيح ولا تضاده؛ لأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يأتون بما تحيله العقول الصحيحة، ولكن قد يأتون بما تحار فيه العقول؛ لقصورها وضعف إدراكها، فيجب عليها أن تسلم للصادق الحكيم العليم الخبير بكل شيء، وأن تخضع له وتسلم له وتؤمن به.

ثم إنّ الحديث عن عالم الملائكة يدخل في باب الغيبيات، ويدخل كذلك في باب أركان الإيمان، ولذلك سوف نبحث في هذا العالم المخلوق لله تعالى من حيث ما لدينا من نصوص، تبين وتوضح عن هذا العالم، والذي لا تراه العيون، وهو غيب في علم الله.

تعريف الملك ودلالته من حيث المعنى اللغوي:

الملاك في اللغة: هو المَلك، وملاك الأمر بمعنى: قوامه، والملك واحد الملائكة، ويُجمع على أملاك.

وإذا أردنا أن نعرف معناه الاصطلاحي فنقول: بأنّ الملائكة جنس من خلق الله نوراني لطيف، كجبريل وإسرافيل وميكائيل، ولفظ الملك حينما يذكر مضافًا لله، أي: ملائكة الله، أو مضافًا للأنبياء والرسل، فنقول مثلًا: الملك أُرسل للنبي أو أُرسل للرسول؛ فإنه يوضِّح جزء من معناه، بحيثُ يعطي دلالة بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس للملك أو للملائكة من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، ولذلك فهم ينفذون أمر الله، أما إن كسرت اللام في الملك وقلت: الملك، فقد تغير المعنى، فالملك بكسر اللام: هو اسم من أسماء الله الحسنى، فاحذر من الخطأ في ذلك.

ونَستَطِيعُ أن نَخْلُص من هذا القول إلى تعريف للملك فنقول: الملك واحد الملائكة، وهم جنس نوراني لطيف، وهم خلق من خلق الله لا يعصونه، وأن منهم رسل لله برسالاته ينفذون أمره، وليس لهم من الأمر شيء، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨].

حكم الإيمان بالملائكة ودليله

أما حكم الإيمان بالملائكة فهو واجب، وهو كذلك ركن من أركان الإيمان، ومن أنكر الإيمان بالملائكة فقد كفر.

فما دليل وجوب الإيمان؟ ما الدليل الذي يعطينا من القرآن أو من السنة هذه الدلالة، دلالة الوجوب، وأن من لم يؤمن بهم فقد كفر؟ الدليل من القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فالشاهد هنا في هذه الآية قوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ إذ نحن بموضع الاستدلال على وجوب الإيمان بالملائكة.

ودليل آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وكذلك هنا موضع الشاهد قوله: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ فنلاحظ من التأمل في الآيتين السابقتين أن الله ﷻ جعل الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وهي الإيمان بالله، ثم الإيمان بملائكته وباليوم الآخر وبكتبه وبرسله وأنبيائه، وسمى من آمن بهذه الجملة من الأشياء هذه بمؤمنين، وأن من كفر بهذه الجملة وهي أن يكفر بالله ويكفر بملائكته ويكفر باليوم الآخر وبكتبه وبرسله وأنبيائه، فقد جعله الله من الكافرين.

وقد ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦] وعليه فيجب على المؤمن أن يعتقد ويوقن بهذه الجملة إذ هي أصول الدين، وهي الواردة في الآيتين السابقتين، وقد ورد في الآيتين: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ إلى آخر سورة "البقرة" ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)).

هذا هو الاستدلال الأول الذي ورد في إثبات عالم الملائكة، ووجوب الإيمان بهم من القرآن الكريم، وعلينا أن ننتقل الآن ونبحث في السنة النبوية عن وجود أدلة تدل على وجوب الإيمان بالملائكة، وأن من أنكر الإيمان بهم فقد كفر، فنجد ونلاحظ ما ورد في حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان فقال: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)). فهذه هي الأصول التي اتفقت عليها جميع الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- وهذه هي الأركان الستة للإيمان، وأريد أن أنبه الطالب إلى أن هذا الحديث الذي نستدل به على أركان الإيمان، هو هذا الحديث نفسه الذي جاء فيه جبريل إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة.

ولكن موضع استشهادنا هنا: "أركان الإيمان"، وعليه فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه شك، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفرًا بإجماع المسلمين وبالنص القرآني العظيم، فقد قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

هذه هي الأدلة السمعية في إثبات وجود الملائكة، وأنه لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف.

وعلينا أن نبحث من خلال النصوص القرآنية، وما ورد في السنة عن صفات هذا العالم الغيبي، صفات الملائكة الخَلقية، فإن الذي يستقصي ويتتبع الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تكلمت عن الملائكة وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم، يلاحظ أنها تناولت في الغالب ما يبين علاقتهم بالله ﷻ وكذلك علاقتهم بالكون وعلاقتهم بالإنسان.

ويعبر صاحب (العقيدة الطحاوية) بعلاقتهم بالكون في قوله: "وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥].

وقد عرفنا ﷻ عن عَالَمِ المَلَائكة بما ينفعنا في تطهير عقيدتنا، وتزكية قلوبنا، وتصحيح أعمالنا، أما حقيقة الملائكة وكيف خلقهم وتفصيلات أحوالهم؛ فقد استأثر سبحانه بها، وهذه خصيصة من خصائص العقيدة الإسلامية، فقد تناولت العقيدة الإسلامية الحقائق الكونية والتعريف بها، في حدود ما يحتاج إليه البشر وما تطيقه عقولهم، فلم يطلعنا الله ﷻ على جميع الغيبيات فيما يتعلق بجلاله، أو ما يتعلق بمخلوقاته الغيبية كالملائكة، والمؤمن الصادق يُقر بكل ما أخبر به الخالق ﷻ سواء ورد مجملًا أو مفصلًا، ولا يزيد على ذلك و لا ينقص منه، ولا يتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه ﷻ، ولا كذلك يخوض فيه، وبناء على ذلك فإن الخالق ﷻ لم يخبرنا من صفات الملائكة إلا النزر القليل، ثم أتت السنة النبوية فوضحت بعضًا من صفاتهم".

ونقول عن صفاتهم: أنهم خلقوا قبل آدم # وأن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان ويجعله خليفة في الأرض. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأما المادة التي خلقوا منها؛ فإننا نجد أن القرآن الكريم قد تعرض لخلق الإنسان فقال إنه من تراب، وإلى خلق الجن فذكر أنه من نار، ولم يتعرض لخلق الملائكة، غير أنه ورد عن الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور، فعن عائشة > أن رسول الله ﷺ قال: ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

فتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية، ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية، وأن الرسول الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- لم يبين أي نور هذا الذي خلقوا منه، وأن ما ورد من أحاديث تخوض في بيان حقيقة هذا النور، أو تخصيصه بشيء بذاته فهي أحاديث لا يجوز الأخذ بها، وقد روي من بعض هذه الأحاديث عن عكرمة أنه قال: "خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة". وروي في حديث آخر أنه قال: "خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر".

وكل هذه الأحاديث لا يجوز الأخذ بها؛ لأن هذه الأمور كلها تتعلق بالغيبيات، وأنها لم يرد فيها تفصيل، وما ورد من تقسيم الملأ الأعلى إلى ثلاثة أقسام، فكل هذا ليس عليه دليل صحيح يدل عليه فيجب ترك ذلك.

صفات الملائكة الخَلقية

خلق الله الأشياء خلقًا وهو الخالق والخلاق، ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله تعالى، وأصل الخلق التقدير، خلق خلقًا وخلقه: أوجده وأبدعه من العدم، وقد وصف الله الملائكة بأن لهم أجنحة ويتفاوتون في عددها، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

ومن صفاتهم الخَلقية: الجمال، وقد وصف الله صورتهم التي خلقهم عليها بأنها جميلة، فهم يوصفون بالجمال. قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦]. قال ابن عباس > : ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ "أي: ذو منظر جميل

حسن". وقال قتادة: "ذو خلق طويل حسن". وقيل: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة، ولا منافاة بين القولين، فهو قوي وحسن المنظر.

وبذلك يتقرر أن الله تعالى خلق الملائكة على صورة جميلة حسنة كريمة، حتى أنه انتقل هذا التصور لدى الناس بوصفهم للملائكة بالجمال، ووصفهم الشياطين بالقبح، فهم يشبهون الجميل من البشر بالمَلك، ومما يستدل به على خلقهم في صورة جميلة ما قالته النسوة في حق يوسف # عندما رأينه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ومن صفات الملائكة كذلك: أنهم لا يتناكحون ولا يتزاوجون، فهم مطهرون من الشهوات الحيوانية، لا يتصفون بشيء من الصفات المادية التي يتصف بها ابن آدم، ولذلك فهم لا يتناسلون ولكنهم عباد الرحمن، مخلوقون لله دون واسطة تناسل.

ومن صفاتهم كذلك: أنهم قادرون على الصعود والهبوط بين السماوات والأرض، من غير تأثر بجاذبية أو تصادم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

ومن صفاتهم كذلك: أنهم لا يأكلون ولا يشربون، فهم لا يحتاجون إلى طعام البشر وشرابه، وقد حدث ذلك في قصة ضيف سيدنا إبراهيم، فقد أخبرنا الله تعالى أن الملائكة جاءوا إلى سيدنا إبراهيم # في صورة بشر؛ فقدم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم، فزال خوفه واستغرابه. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

وقد ورد في آية أخرى تفصيل فقال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

ومن صفاتهم الخلقية: أنهم لا يملون ولا يتعبون، والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته، وتنفيذ أوامره بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك. قال تعالى في وصف ملائكته: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ومعنى ﴿ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ أي: لا يضعفون.

ويجب تطهير الاعتقاد في الملائكة: بأن يعتقد المؤمن بأنهم لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، ولذلك ضل من وصفهم بالأنوثة كمشركي العرب، فقد زعموا أن الملائكة خلقوا إناثًا وليسو ذكورًا، ولم يكتفوا بهذا الافتراء والكذب في حقيقة خلقهم، بل زادوا على هذا بخرافة وكذب أعظم وأكبر، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقد رد القرآن الكريم على قولهم وزعمهم أن الملائكة خلقوا إناثًا، وأنهم بنات الله، فقال عز من قائل: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ [الصافات: ١٤٩- ١٥٦] فبيّن ﷻ أن زعمهم هذا بالقول بالأنوثة وأنهم بنات الله، لم يعتمدوا فيه أبدًا على دليل صحيح.

فعالم الغيب له قواعده؛ ولا يدخل في مقاييس العوالم الدنيوية بالمقاييس البشرية، وأن هذا القول قول كاذب متهافت لا دليل فيه على صحة قولهم؛ لأن عالم الغيب لا يدخل فيه قواعد العالم المحسوس والمشاهد، وقد ورد في آية أخرى رد على بطلان قولهم في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقد جعل الله ادعاءهم هذا وافتراءهم وكذبهم، بقولهم: أن الملائكة خلقوا إناثًا، شهادة ستكتب عليهم، وسيحاسبهم عليها الله ﷻ، وذلك لأن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم.

وهنا ملاحظة يجب أن نلتفت إليها، علينا أن نعلم أن ما ورد في آيات القرآن الكريم ما يوهم أنهم إناث، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١، ٢] ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١] فمعنى جمع التأنيث في ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة، وأنها لا ترجع إلى تأنيث الملائكة، فثبت أن الملائكة ليسو إناثًا كما ادعت العرب قديمًا، وافتروا في هذا القول.

ومما يتصف به الملائكة: عظم خلقهم، فمما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في وصف جبريل # : ((رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض)). وقال تعالى في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وروى الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن مسعود قال: ((رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل)) أي: الأشياء المختلفة الألوان من الدر واليواقيت، والأجنحة في عالم الأرواح كالملائكة ترشد إلى القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله.

وقال تعالى في وصف عظم خلق ملائكة النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] والمعنى: أي: يقوم على تعذيب أهلها - أي: أهل النار- ملائكة أقوياء قساة في معاملاتهم.

ومما ورد عن رسول الله ﷺ في وصف عظم حملة العرش قال: ((أُذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)). وفي رواية عن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش، رجله في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول -أي: الملك- سبحانك حيث كنت)).

الإيمان بالملائكة (٢)

عناصر الدرس

تابع صفات الملائكة الخَلقية

قدرتهم على التشكل: فهم قادرون على أن يتشبهوا ويتشكلوا بالأشكال الجسمانية، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم وبالأحاديث النبوية، فمن القرآن الكريم ما ورد في قصة ضيف إبراهيم، فقد جاءوه في صورة بشر، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤].

وقد أرسل الله جبريل # في صورة بشر إلى مريم. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

وقد جاءوا إلى سيدنا لوط # في صورة شباب حسان الوجوه، وضاق لوط بهم وخشي عليهم من قومه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧] وقد أتت الملائكةُ في صورة شباب مرد حسان امتحانًا واختبارًا لقوم لوط، حتى تقوم عليهم الحجة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ومنها قصة الملكين الذين تسوروا المحراب على داود # في صورة رجلين خصمين. قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ [ص: ٢١، ٢٢].

أما دليل تشبههم من الحديث فقد كان جبريل # يأتي الرسول ﷺ في صفات متعددة، فمرة يأتيه على صورة دحية بن خليفة الكلبي، وهو صحابي جليل،

كان جميل الصورة، وتارة يأتيه في صورة أعرابي، وقد شاهده الكثير من الصحابة عندما كان يأتي لرسول الله ﷺ، ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال: ((بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى رسول الله ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام)). وفي الحديث أنه سأله عن الإيمان والإحسان والساعة وأماراتها.

وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل، جاء يُعلم الصحابة دينهم، وفي حديث آخر أن عائشة رأت الرسول ﷺ ومعه دحية الكلبي يكلمه، فلما سألته عن ذلك قال ﷺ: ((ذاك جبريل وهو يقرئك السلام)).

الأسماء التي وردت تعلمنا ما جاء عن أسمائهم

فقد ورد ذكر أسماء الملائكة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ففي القرآن الكريم أن الملك الذي نزل بالقرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ اسمه جبريل # قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وسمي جبريل في القرآن بالروح الأمين وروح القدس: قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤] وقال سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

ومن الملائكة الذين ذكر اسمهم: ميكائيل # فقد ورد قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨] وميكائيل # وظيفته الأساسية القيام على النبات والمطر، ينزله بإذنه

تعالى إلى حيث أمر الله، وبمقدار ما أمر الله به. روي أن رسول الله ﷺ قال: ((قلت: يا جبريل، على أي شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود. قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر)).

ومن الملائكة الذين ورد اسمهم: إسرافيل # وهو ملك عظيم الخشية لله تعالى. روى الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إن الله خلق إسرافيل منذ يوم خلقه صافًّا قدميه، لا يرفع بصره)) أي: من خشية الله. وإسرافيل ذُكر اسمه في السنة النبوية، ولم يأت ذكر اسمه في القرآن، وهو الذي ينفخ في الصور، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ((كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه، وأصغى سمعه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ. قالوا: يا رسول الله، وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)).

ومنهم: رضوان وهو خازن الجَنّة. روى ابن كثير أن خازن الجنة ملك يقال له: رضوان، ومنهم مالك خازن النار. قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ومنهم منكر ونكير، سماهما الرسول ﷺ وذُكرا كثيرًا في سؤال القبر في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ.

ومن أسماء الملائكة: هاروت وماروت، وما ذكر حولهما لم يثبت منه شيء لا في الكتاب ولا في السنة، فيكتفى بمعرفة أمرهما بما دلت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١١٢].

ومنهم: رقيبٌ وعتيد، فقد ورد قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨] والقول الحق أنّ رقيب وعتيد في الآية الكريمة وصف للملكين الذين يسجلان أعمال العباد؛ فمعنى رقيبٌ وعتيد أنهما ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العدل.

ومن الأسماء التي وردت عن الملائكة: عزرائيل، فقد ورد في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل، والصحيح أنه لم يرد هذا الاسم له لا في القرآن ولا في السنة. يقول صاحب (العقيدة الطحاوية): "ورؤساؤهم -أي: عالم الملائكة- الأملاك الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأن هذا الخلق من الملائكة خلق كثير لا يحصون عددًا، ولا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]".

وهنا سؤال: إذا كان عددهم كثيرًا فهل يموتون قبل نفخة الصور؟

والجواب عن ذلك لا يستطيع العقل أن يعلمه، ولا نستطيع الخوض فيه؛ لعدم وجود النصوص المثبتة أو النافية له، أما الموت -أي: موت الملائكة بعد نفخة الصور- فقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] فمفهوم الآية صريح في بيان أن الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن، فالآية تشملهم لأنهم في السماء.

ومما يدل كذلك على أنهم يموتون قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] فالحكم بموت الملائكة ثابت ومقرر بالنص القرآني، فنقول: هم يموتون كما يموت الإنس والجن.

صفات الملائكة الخُلقية

وعلينا أن نعرف معنى الخلق، وهو بضم الخاء واللام.

الخلق لغة: الطبيعة والسجية والمروءة والدين، وعرفوا الخلق اصطلاحًا بأنه حالة قائمة بالنفس راسخة فيها، تصدر عنها الأعمال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، وبناء على ذلك بعد هذا التعريف للخلق نرى أن الملائكة قد وصفوا بصفات كثيرة تصف خلقهم، وأول هذه الصفة هي الصفة التي وردت في وصفهم بأنهم كرام بررة. قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥، ١٦] ومعنى ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة.

روى الإمام أحمد عن عائشة < قالت: قال رسول الله ﷺ: ((الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران)). وقد فسر الإمام البيضاوي قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة، وقد جعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله كالسفير الذي يصلح بين القوم.

ومن صفات الملائكة الخُلقية: مما ورد علم اختصام الملأ الأعلى، ففي (سنن الترمذي) و(مسند الإمام أحمد) عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال: ((أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة)) وفي رواية أخرى: ((أتاني في منامي)) وفي رواية أخرى أن هذه الرؤية وهذا السؤال كان في السماء السابعة، في رحلة الإسراء والمعراج.

فقال: ((يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السموات وما في الأرض،

فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات، والدرجات، والكفارات هي: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره. قال: صدقت يا محمد، ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: يا محمد، إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. وأما الدرجات فهي: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام)).

وهذا الحديث يعطي دليلًا على أن الملائكة تتحاور فيما بينها، فيما خفي عليها من وحي ربها، وهنا يرد سؤال: هل اختصام الملأ الأعلى الذي ورد في هذا الحديث هو بمعناه فيما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [٦٩، ٧٠].

والجواب أن الاختصام المذكور في الحديث قد فسره الرسول ﷺ أما الاختصام المذكور في القرآن الكريم فقد فسرته الآيات بعده في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٤] فالاختصام المذكور في القرآن كان في شأن آدم # وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. هذا ما ذكره ابن كثير.

ومن صفات الملائكة الخلقية: حياؤهم، إنّ الملائكة تتصف بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة كصفة الحياء، وقد ورد من استحياء الملائكة ما أخبرنا به الرسول ﷺ ففي (صحيح مسلم) عن عائشة > : ((أن الرسول ﷺ كان مضطجعًا في بيتها كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر الصديق >

فأذن له وهو على تلك الحال -بأنه كاشف عن فخذيه أو ساقيه- فتحدث -أي: تحدث أبو بكر- مع النبي ﷺ ثم استأذن عمر > فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان بعد ذلك > في الدخول على رسول الله ﷺ فجلس الرسول ﷺ وسوى عليه ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج -أي: عثمان > قالت عائشة سائلة للرسول ﷺ: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟! فقال ﷺ مجيبًا لعائشة: ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة!!)). وفيه دليل على أن الملائكة من صفاتها الاستحياء، وهي صفة كريمة محمودة.

ومن صفات الملائكة: تأذيهم، وأنهم يتأذوا مما يتأذى منه ابن آدم، ولذلك على المؤمن الذي يحب الله ورسوله، ويتعبد لله ويتبع رضوانه، يجب عليه حب الملائكة وتوقيرهم، وأن يتجنب كل ما يسيء إليهم ويؤذيهم، وإن أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك، لذلك فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه كالأنصاب والتماثيل، ولا تقرب كل متلبس لمعصية كالسكران، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ولا كلب ولا جنب)) وفي رواية عن عاصعن علي: ((ولا بول)). وفي رواية عن أبي سعيد مرفوعًا: ((لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب أو تمثال)).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس)).

وإن الملائكة لتتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة والأقذار والأوساخ. روى البخاري ومسلم أنّ الرّسول ﷺ قال: ((من أكل الثوم والبصل والكراث؛ فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)). وقد بلغ

الأمر بالرسول ﷺ أن أمر بالذي جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبعث منه أن يخرج إلى البقيع.

وكذلك نهى الرسول ﷺ عن البصق عن اليمين في الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة < عن النبي ﷺ قال: ((إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه؛ فإنه إنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكًا، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها)).

عبـــــــــادة الملائكــــــــة

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ﷻ فلا يعصونه، وتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة إنما هو جبلة فيهم، لا يكلفهم ذلك أدنى مجاهدة؛ لأنه لا شهوة لهم، وهم عباد الله مكلفون بطاعته، ويقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة، وأذكر إليك بعض العبادات التي أخبرنا الله ورسوله ﷺ أنهم يقومون بها.

فمما ورد من عبادتهم: التسبيح، والتسبيح أفضل الذكر. روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: ((سئل رسول الله ﷺ: أي الذكر أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)). وكذلك حملة العرش يسبحون الله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧].

كما يسبحه ﷻ عموم الملائكة. قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥] وحقيقة تسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار، كما قال

تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ولكثرة تسبيحهم وصفوا به، فحق لهم أن يفخروا بتسبيحهم. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]. وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨] تقول العرب: سئم الشيء، أي: مَلّه.

ومن أمثلة أخرى على عبادتهم: هي صلاتهم، وقد ذكر الرسول ﷺ حديثًا يمدح فيه الملائكة في وقوفهم بين يدي ربهم، حيث وصفهم بأنهم منظمون في عبادتهم، وقد حث البشر على الاقتداء بهم في ذلك من المسلمين، فقال: ((ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها. قالوا -أي الصحابة-: وكيف يصفون عند ربهم؟ قال -أي: الرسول ﷺ: يكملون الصف الأول فالأول، يتراصون في الصف)). وهذا دليل بالحث على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة صفًا صفًا.

وفي حديث آخر يدل على أن الملائكة يؤدون الصلاة وهم يقومون ويركعون ويسجدون، فمما روي عن رسول الله ﷺ وهو في أصحابه إذ قال لهم: ((أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء. قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط؛ وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)). وفي حديث آخر: ((أطت السماء وحق لها أن تئط)). وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وكل ما بين ساجد أو قائم.

ومن عبادة الملائكة كذلك: حجهم؛ فإن الملائكة تحج كما يحج المسلم، وللملائكة كعبة في السماء السابعة يحجون إليها، هذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى بالبيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور بقوله: ﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾ [الطور: ٤].

ومن صفات الملائكة: خشيتهم من الله ﷻ وخوفهم منه. عن جابر > أن رسول الله ﷺ قال: ((مررتُ ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحَلَسِ البالي من خشية الله)).

والمقصود بالحلس: كساء يبسط في أرض البيت.

وفي رواية أخرى قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماء منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة؛ خوفًا من الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا، وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل # فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد)).

ومن هذه المواقف التي بينها لنا حديث رسول الله ﷺ عن الملائكة يدل على كبير معرفتهم بربهم، وعلى تعظيمهم لله وعمق خشيتهم لرب العباد عظيمًا. قال الله فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ونتحدث كذلك عن موقف سجود الملائكة لآدم، فمن صفات الملائكة طاعتهم لأوامر الله، فكان من طاعتهم لله ﷻ السجود لآدم # لما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته، فسألوه الملائكة عن الحكمة من وراء ذلك؛ لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد وسفك للدماء وعصيان وكفر، فأخبرهم الله ﷻ أن خلقه لآدم له حكم كثيرة لا يعلمونها. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا تظهر الطاعة المطلقة للملائكة لأمر الله، فأمرهم الله بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١، ٧٢] فانصاعوا لأمر الله واستجابوا إلا إبليس الذي امتنع عن السجود، فقال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤].

وفي هذا الموقف العظيم تتجسد فيه طاعة الملائكة المطلقة لأوامر الله، فلم يعترضوا كما اعترض على ذلك إبليس اللعين.

عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. قال: فزادوه: ورحمة الله)).

هذا ما يتعلق بخُلق الملائكة وهو خُلق عظيم.

الإيمان بالملائكة (٣)

عناصر الدرس

أعمـــــال الملائكـــــة

ومن أعمالهم: ما ورد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الصحيحة، على أن الملائكة موكلة بأصناف المخلوقات المختلفة، وأن الله ﷻ وكّل كل فرقة من الملائكة بعمل معين يخالف الفرقة الأخرى.

فعلى سبيل المثال وكّلَ سُبحانَه بالجِبَال مَلائِكَة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ووكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله من مخلوقاته.

ومن أهم الأعمال التي يقوم بها الملائكة: تبليغ وحي الله ﷻ إلى رسله وأنبيائه؛ ليبلغوه للناس، فتنصلح أحوال البشرية وتستقيم، وقد أعلمنا الله ﷻ أن جبريل # يكادُ يختصُّ بهذه المهمة. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] ولكن قد يأتي بالوحي غير جبريل # وهذا قليل.

عن ابن عباس قال: ((بينما جبريل قاعدًا عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته)).

ومن أعمال الملائكة: حراستهم لابن آدم، لذلك نلاحظ أن علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة؛ فهم يقومون عليه عند خلقه، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة الدنيا، ويراقبون أعماله وتصرفاته، وقد خصَّ اللهُ قِسمًا من الملائكة بحراسة بني آدم وحفظه من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قدَرُ اللهِ الذي قَدّر أن يصل إليه خلوا عنه. قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١٠، ١١].

وفي الحديث: ((ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له ملك وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه)). وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] والحفظة هنا هم كالحفظة التي في الآية السابقة، أي: يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له.

ومن أعمال الملائكة: حِفْظُ أعمالِ بني آدم، وقد وكّل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه، عملهما يُحصيان عليه أعماله وأقواله، سواء من خير أو من شر، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٦- ١٨].

ومعنى قعيد في الآية أي: متربصٌ، ومعنى رقيب عتيد كذلك في الآية أي: مراقب معد لذلك، لا يترك كلمة تفلت منه، وهذا يعني أن الملائكة الموكلة بالإنسان تكتب كل ما يصدر عنه، سواء أقوال أو أفعال، لا يتركون شيئًا، ولذلك يجد الإنسان كتابه يوم القيامة قد حوى كل شيء صدر منه.

ولذلك فإن الكفار -والعياذ بالله- ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين: ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩] الآية.

وإن من أعمال الملائكة التي خصهم الله بها: هي نزع روح الإنسان، وقد اختص الله بهذا الأمر بعض ملائكته، وذلك عندما تنتهي آجالهم التي قدرها الله لهم. قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

ويأتي سؤال هنا: هل الذي يَقبِضُ الأرواح ملك واحد أو أكثر من ملك؟ والجواب: أنه أكثر من ملك، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] والملائكة تنزع أرواح الكفرة والمجرمين نزعًا شديدًا عنيفًا بلا رفق ولا هوادة، أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعًا رفيقًا وبلطف.

ومن أعمال الملائكة: صلاتهم على المؤمنين. يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته، ورأى آخرون أن الصلاة من الله على العبد رحمة، وأما الصلاة من الملائكة فالمقصود منها الدعاء للناس والاستغفار لهم، فمعلم الناس الخير تصلي عليه الملائكة، والذي يأتي المسجد للصلاة فيه تصلي عليه الملائكة، وتصلي الملائكة أيضًا على الذين يصلون في الصف الأول، والذين يمكثون في مصلاهم بعد الصلاة، والذين يسدون الفرج بين الصفوف، والذين يتسحرون في الصوم أو للصوم، والذين يصلون على النبي ﷺ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن، أن رسول الله ﷺ

قال : ((ما من عبد يصلي علي إلا صلت عليه الملائكة ما دام يصلي علي ، فليقُل العبد من ذلك أو ليكثر)).

الجـــــن والــــــــشياطين

أ. المادة التي خلقوا منها :

لقد تَعَرّض القرآن الكريم للحديث عن الجن في نحو أربعين آية ، كما خَصّص الله سبحانه سورة كاملة ذكر فيها قصة نفر منهم ، استمعوا للقرآن الكريم من تلاوته ﷺ فآمنوا ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، وهي سورة الجن ، ولكن إذا أردنا أن نعرف بالجن علينا أن نعرف معنى لفظ الجن في اللغة العربية ، فالجن يعرف في اللغة على عدة مراتب ؛ أولها : إذا ذكروا الجن خالصًا قالوا : جني. ثانيها : إذا أرادوا به أنه مما يسكن مع الناس قالوا : عامر. وإذا أرادوا به ما يعرض للصبيان قالوا : أرواح ، وهذا ثالث الآراء. رابعها : ثم إذا خبث وتعرض ، أي : تعرض للإنسان قالوا : شيطان ، ثم إذا زاد في خباثته وقوي أمره قالوا : عفريت ، والمردة منهم هم أعتاهم وأغواهم.

وبعد هذا التعريف اللغوي الذي يشمل مراتبهم ، نستطيع أن نخلص إلى تعريف اصطلاحي للجن ، فنقول : الجن عالم غيبي يغاير عالم الإنسان وكذلك عالم الملائكة ، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ، وأنهم مكلفون بالشرائع.

ب. الدليل على وجودهم :

وإذا كان وجود الجن قد تعرض لقلة من الناس أنكرت وجودهم كليًّا ، وقد زعم بعض المشركين أن المراد بالجنِّ أرواح الكواكب ، وزعمت طائفة من الفلاسفة أن

المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية، وقواها الخبيثة، كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم، فإن كل هذه الأقاويل يكذبها القرآن الكريم، داحضًا شبههم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢] ثم تتوالى الآيات مبينة وموضحة وجودهم، وأنهم مخلوقات غير بني البشر بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

ج. أما أصل خلقهم والمادة التي خلقوا منها:

فإن الله ﷻ قد أخبر أنهم خُلقوا من النار في قوله تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧] وفي سورة الرحمن: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٥] ومعنى ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ قد ذهب المفسرون إلى ذكر ثلاثة معان لها، فقد رأى البعض أن تفسير ﴿ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي: من طرف اللهب، وذهب آخرون في تفسير ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي: من خالصه وأحسنه، وذهب البعض الآخر منهم الإمام النووي في شرحه على مسلم إلى أن المارج: اللهب المختلط بسواد النار.

وأما الدليل على وجودهم من الحديث النبوي؛ فقد أخبر النبي ﷺ أن الملائكة خُلقوا من نور، والجن خلقوا من نار، ففرق ﷺ بين أصل الملائكة وأصل الجن، وفي حديث آخر يبين فيه الرسول ﷺ أصناف الجن فيقول: ((الجن ثلاثة أصناف: فصنف يطير في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون)). وعن جابر مرفوعًا: ((إذا سمعتم نباح الكلب ونهيق الحمير بالليل، فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنهم يرون ما لا ترون)).

وهنا نطرح سؤالًا: هل الشيطان من الجن أم شيء آخر؟

والجواب: أن الأدلة تبرهن على أن الشيطان من الجن، وقد حدثنا الله عنه كثيرًا في القرآن الكريم على أنه من عالم الجن، كان يعبد الله في بداية أمره، وكان يسكن السماء مع الملائكة، ودخل الجنة ثم عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم؛ استكبارًا وعلوًّا وحسدًا، فطرده الله من رحمته، وتعني كلمة "الشيطان" في اللغة كل عاة متمرد، وقد أطلقت كلمة شيطان على هذا المخلوق لعتوه وتمرده على ربه، ويسمى أيضًا طاغوتًا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

وسُمِّي طاغوتًا لتجاوزه حده، وتمرده على ربه، وتنصيبه نفسه إلهًا يعبد، وعرف بهذا الاسم عند غالبية أمم الأرض بنفس هذا اللفظ، كما ذكر ذلك العقاد في كتابه (إبليس). وسمي كذلك بإبليس، وسماه الله بذلك لأنه يئس من رحمة الله، و"البلس" في اللغة: من لا خير عنده، وأبلس بمعنى يئس وتحير، ونخلص إلى السؤال الذي يقول: هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم؟

والجواب عن ذلك: قد ذهب بعض العلماء إلى اعتبار أن الشيطان من الجن؛ لما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [الكهف: ٥٠] وقسم آخر من العلماء ذهب إلى أن الشيطان أصل الجن، وقد أيد هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه فقال: "إن الشيطان أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس".

هل الجن منهم المؤمن والكافر؟

لقد خلق اللهُ الجن ومنحهم الإرادة والاختيار؛ فكان منهم المؤمن والكافر، والكافرون منهم شياطين، وهم جنود الشيطان الأول إبليس اللعين، الذي كان

أول من عصى أمر ربه من الجن، وأول من كفر بنعمة الله، وفي سورة الجن قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤، ١٥] والقاسطون: هم الحائرون الحائدون عن صراط الحق.

فهذه الآيات تدل على أن الجن فيهم المؤمن وفيهم الكافر، وقد قرر الله عقوبة الكافر منهم في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩] ولا تكون العقوبة إلا بعد مخالفة ناشئة عن تكليف، ولا يكون التكليف إلا لمن كان مستوفيًا لشروطه.

هل الجن تتشكل ولهم القدرة على التشكل؟

إنّ الجن لهم قدرة على التشكل بالأشكال الجسمية، التي يُمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية، فقد ورد الخبر ظهور بعض الجن لبعض من الإنس بأشكال جسمانية مرئية، وظهور بعضهم على غير الصورة الجسمية، بحيث يظهر على صفة حية من الحيات.

ودليل ذلك ما رواه مالك: "من أن فتى قد استأذن من الرسول ﷺ أن يذهب إلى المدينة ليستشرف أحوال أهله، وكانوا في هذا الوقت في غزوة الخندق، فلما ذهب إلى المدينة وجد امرأته خارج بيته واقفة بين الناس، فهيأ الرمح ليطعنها بسبب الغيرة، فقالت امرأته: "ادخل بيتك لترى، فدخل بيته فإذا هو بحية على فراشه، فركز الرمح فيها، فاضطربت الحية في رأس الرمح، فخر الفتى صريعًا". يقول الراوي: فما ندري أيهما كان أسرع موتًا الفتى أو الحية. قال الراوي: فسألنا رسول الله ﷺ فقال: ((إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فمن بدا لكم منهم فآذنوه ثلاثة أيام، فإن عادوا فاقتلوه فإنه شيطان))".

ومن تشكلهم أنهم كانوا يظهرون لسليمان # ويسخرهم في أعمال جسيمة، كما كان # مسلطًا على تعذيب المسيئين منهم، فيقرنهم في الأصفاد، أي: يقيدهم في الأغلال.

ونخلص من الحديث عن عالم الجن إلى أن وجودهم من المخلوقات ضمن هذا الكون، وهذه حقيقة جاءتنا عن طريق الصادق الأمين -صلوات الله وسلامه عليه- وأن الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض مدعي الاتصال بالجن، والافتراءات الكاذبة على الله التي يفترونها، فينسون إلى الجن بعض علم الغيب، ويتلاعبون بعقول السذج من الرجال والنساء وصغار العقول، أو يدّعون قدرة الجن على النفع أو الضر، والجن أنفسهم لا حول لهم ولا قوة، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا بإذن الله.

وقد بيّن القرآن الكريم أن أهل الجاهلية، الذين كانوا يعوذون برجال من الجن، لم ينفعوهم شيئًا، بل زادوهم غيًّا وضلالًا وبعدًا عن الأمن الذي يرجونه منهم، كما أن الأحاديث النبوية حذرت ونددت من الذين يصدِّقون الكهنة والمنجمين، ويعتمدون عليهم، ويرجون نفعهم أو يخشون ضرهم، باعتبار أن ذلك شرك بالله وإثم عظيم. روي عن رسول الله ﷺ: ((من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)).

الإيمان بالكتب السماوية (١)

عناصر الدرس

معنى الكتاب، والإيمان به

ما معنى كتاب؟

الكتاب من حيث اللغة: مأخوذٌ من كتب مِن باب نصر، وكتب بمعنى: حكم وقضى وأوجب، ثم يأتي معنى الكتاب، والكتاب: الفرض والحُكم والقدَر، وعرفه آخرون بأن الكتاب صحف ضم بعضها إلى بعض، ويطلق كذلك الكتاب في اللغة على الرسالة، ويُطلق الكتاب ويُراد به القرآن أو التوراة أو الإنجيل، وأهل الكتاب: اليهود والنصارى، هذا من حيث المعنى اللغوي.

تعريف الكتاب اصطلاحًا: هو كل ما أنزله الله على رسله إلى عباده بالحق، وأن هذه الكتب هي كلام الله ﷻ وأن الله تكلم بها على وجه الحقيقة، فهي تحوي تعليم الناس العبادة الصحيحة، وتبين لهم شرائع الله التي تحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، وتحوي ما ينظم هذه الحياة الدنيا من قوانين في كل أمورها.

وأما الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله على رسله، فهو ركن من أركان الإيمان وأصل من أصوله، والمقصود بالإيمان بالكتب هو التصديق الجازم بأن كلها منزل من عند الله ﷻ، على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله ﷻ لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة كما شاء، وعلى الوجه الذي أراد.

وصفة هذه الكتب السماوية أنها مطهرة من الكذب والزور، ومن كل باطل، ومن كل ما لا يليق بها، أما كيفية نزولها على رسله -عليهم الصلاة والسلام- فكان منها المسموع من الله ﷻ من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه

الله للملك، ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ووجوب الإيمان بكتب الله يلزم منه أولًا: الإيمان بكل ما في هذه الكتب من شرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم التي نزلت فيها هذه الكتب الانقياد لها، والحكم والالتزام والعمل بما فيها من شرائع. قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

والإيمان بالكتب يعني كذلك أن جميع الكتب يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه، كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦] وقال في القرآن الكريم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] والإيمان بالكتب يعني كذلك أن كل من كذب بشيء منها، أو أبى عن الانقياد لها، مع تعلق خطابه به ﷻ له يكفر بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وكذلك الإيمان بالكتب يعني أن نؤمن بأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق، كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل. قال الله تعالى في عيسى # : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وهنا نقول: حكم الإيمان بالكتب السماوية واجب، وهو ركن من أركان الإيمان، وقد ذكر ذلك القاضي ابن أبي العز قال: "ونؤمن بالملائكة والنبيين،

والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين". أي: يجب الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين، وهو شاهدنا والموضع الذي نستدل به هو الكتب هنا.

ما عرف من الكتب الإلهية من القرآن الكريم والدليل عليه

قلنا: إن الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين واجب، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه، لا يُعرف أسماؤها وعددها، ولا يعرف ذلك إلا الله تعالى، فما أعلمنا الله به تفصيلًا، كالكتب التي ذكرها في كتابه العزيز، وهي: صُحف إبراهيم # وتوراة موسى # وزبور داود # وإنجيل عيسى # ، وكان خاتم هذه الكتب هو القرآن الكريم، المنزل على سيدنا محمد ﷺ.

ولكن نُلاحظ أنه قد يكون المنزل وحيًّا يُلقى إلى الرسل أو الأنبياء، وليس بكتاب، وذلك كالوحي المنزل إلى إسماعيل وإلى إسحاق وإلى يعقوب وإلى الأسباط، وكذلك ما أوحي به إلى نبينا ﷺ من غير القرآن الكريم.

وفي هذا يقول الحسن البصري > : "أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان -أي: القرآن- ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، أي: القرآن الكريم".

ثم ما الدليل على هذه الكتب المنزلة على هؤلاء المرسلين؟

الدليل من القرآن الكريم ورد تفصيلًا قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فهذا دليل تفصيلي على نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد.

ثم ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] هذا دليل تفصيلي على نزول الزبور على داود # ، ثم ما ورد في التوراة ونزولها على سيدنا موسى قوله تعالى: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]. فهذا دليل على نزول التوراة على موسى # .

أما ما يأتي من الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]. وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] فهذا يدل على أن هناك صحفاً أنزلها الله على إبراهيم. وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤] وهذا دليل على نزول الإنجيل على عيسى # .

ثم ننتقل إلى نص قرآني، وهو أن هذه الكتب قد ورد بالتفصيل فيها هذه الآيات البينة، وأن من الكتب الأخرى ما ورد ونزل، ولكن لم يكن فيه تفصيل في القرآن الكريم، وبناء عليه يجب أن نؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦].

وجوب الإيمان الإجمالي للكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

يجب على المؤمن أن كتبًا سماوية سابقة قد جاءت على رسله، قبل نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ، وأن الكتب السماوية السابقة كانت تحتوي على شرائع، وجب الالتزام والانقياد لها لمن نزلت إليه، كأمة موسى أو أمة عيسى أو غيرهما. ونؤمن بأن الكتب السماوية يُصدق بعضها بعضًا، ولا يكذب بعضها بعضًا، فالإنجيل مصدقٌ للتوراة، ففي القرآن الكريم حكاية عن أن الإنجيل يصدق التوراة قوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وأما حُكم من يُنكر شيئًا مما أنزله الله فالحكم أنه كافر. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ونُصدق بنَسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة كليًّا أو جزئيًّا، فالإنجيل أحل بعض ما حُرم في التوراة. ودليله قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ونرى أن القرآن الكريم قد نسخ الكثير مما في التوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهذا هو القدر الذي يجب على المسلم أن يؤمن به إجمالًا للكتب التي لم يرد ذكرها في القرآن الكريم.

ضياع نسخ من هذه الكتب وتحريفها

التحريف في التوراة:

التوراة التي بين أيدي الناس اليوم محرفة، -كلمة التوراة من أين أتت، ما معناها- فكلمة التوراة أصلها عبري من تُورا، بمعنى: القانون والتعليم والشريعة.

أما دليلُ تحريفها، فالاختلاف الذي تجده فيها، وفي أمور كثيرة بين نسخها وطبعاتها، نجد أن هناك ثلاث نسخ للتوراة: العبرانية واليونانية والسامرية، وكل قوم يدّعون أن نسختهم هي الصحيحة، وهناك فروق واضحة بين طبعات التوراة وترجماتها، ولكن التوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى هي كتاب من عند الله، جاء لهداية بني إسرائيل، وإنارة طريقهم إلى الله، وطريقهم في الحياة، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد، وتحمل شعائر تعبدية شتى. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فأنزل الله التوراة؛ لتكون هدى ونورًا للقلوب، بما فيها من عقيدة وعبادات، وكذلك هدى ونور بما فيها من شريعة، تحكم الحياة الواقعية، وفق منهج الله، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله، ولكن لما كانت هذه الرسالات أنزلت لأقوام بأعيانهم، وكانت مرهونة بوقت وزمان، فإنها لا تخلد ولا تبقى، ولم يتكفل الله بحفظها، وقد وكل الله حفظها إلى علماء تلك الأمة التي أنزلت عليها، فالتوراة وُكل حفظها إلى الربانيين والأحبار.

ومعنى كلمة "حبر" فهي تطلق على العالم، وعلى الأحبار الذين هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ كتابهم، وخان بعضهم الأمانة، فغيروا وبدلوا وحرفوا، وحسبك أن تطالع التوراة لترى ما فيها من تحريف وتبديل في الفروع والأصول، وقد نسبوا إلى الله تعالى ما يقشعر الجلد لسماعه، ونسبوا إلى الرسل ما يترفع الرعاع عن نسبته إليهم.

والتوراة الآن نجدها فيما يطلق في العربية باسم الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، أو أحيانًا يختصرونه فيسمونه الكتاب المقدس، وهو ينقسم إلى قسمين رئيسيين؛ القسم الأول منه يسمى: العهد القديم، وهو الخاص باليهود، ونلاحظ أن النصارى قد قبلوه كجزء من كتابهم المقدس، وهذا الجزء -العهد القديم- يتكون من تسعة وثلاثين سفرًا، وسأذكر على وجه المثل الخمس الأولى لعلة سأذكرها:

١. سفر التكوين.
٢. سفر الخروج.
٣. سفر اللاوين.
٤. سفر العدد.
٥. سفر التثنية.

ويُطلق على هذه الأسفار الخمسة الأولى التي ذكرتها التوراة، رغم أنه ليس لها علاقة بالتوراة الحقيقية، باستثناء نصوص وعبارات مبعثرة بقيت من الأصل. ومن المعلوم أن أسفار العهد القديم كتبت بعد موسى # على فترات طويلة،

امتدت مئات السنين، وكثير منها عبارة عن تاريخ قومي للشعب اليهودي، وأما مؤلفوها فليسوا الأنبياء الذين تنسب إليهم الأسفار؛ إذ لا يعدو ذلك مجرد التخمين أو التمني.

أما تحريف التوراة فهو كثير، فقد حرف اليهود، وافتروا على الله الكذب الكثير، وافتروا على الرسل، ومن ذلك التحريف ما سأضرب به مثالًا لضيق المقام هنا، ومن يريد الرجوع للتوضيح والاستزادة فليرجع إلى الكتاب المسمى (محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى) تأليف البروفيسور عبد الأحد داود، أو كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) لموريس بوكاي.

أما المثال الذي سأورده هنا عن التحريف الذي حدث في التوراة، ما ورد في تحريفهم في قصة إسماعيل بن إبراهيم # فقالوا: إن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل؛ حقدًا وحسدًا أن يذهب إسماعيل وأبناؤه -وهم العرب- بهذا الفضل، فأقحموا في النص كلمة إسحاق بدل إسماعيل، ولكن ظهر تناقضهم في نصوص أخرى في التوراة، تثبت أن المقصود بالذبيح هو إسماعيل ولد إبراهيم، وليس إسحاق، وقد ثبت هذا في سفر التكوين، الإصحاح الثاني، فقرة ٢، والإصحاح السادس عشر من سفر التكوين، والإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين، فقرة ٥.

تحريف الإنجيل:

معنى كلمة إنجيل: كلمة إنجيل هي كلمة يونانية، معناها: البُشرى المُفرحة أو الخبر السارّ، وهذا يدل على أنه كان خبر عند بني إسرائيل بشيء يفرحهم، والمسيح جاء ليبشرهم بقرب وقوع الخبر.

وقد وردت كلمة الإنجيل في القرآن الكريم ١٢ مرة، وبعد رفع المسيح # وضياع الإنجيل الرباني المنزل عليه، كتبت أناجيل كثيرة زادت على المائة؛ فاختارت الكنيسة منها أربعة فقط، وهي المقصودة بكلمة الإنجيل عند المسيحيين الآن، وهي: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا، وأن بعض هذه الأناجيل كإنجيل متى، وهم يزعمون أنه أحد التلاميذ الاثنا عشر، هذا الإنجيل دوّن باللغة العبرية أو بالسريانية، وأقدم نسخة عثر عليها كانت باللغة اليونانية.

وتُطلق كلمة الإنجيل على العهد الجديد من الكتاب المقدس، الذي ذكرته سابقًا، وهو خاص بالنصارى فقط، ولا يعترف به اليهود، ويشتمل على سبعة وعشرين سفرًا، والمفترض كما يبدو من أسمائها -أي: الأسفار الأربعة التي يطلق عليها الإنجيل- أنها كتبت من قبل حواري عيسى المسيح # وهي من جملة عشرات الأسفار الأخرى، التي كانت شائعة في عصر المسيح الأول، ثم أبطلها المجمع المسكوني الأول الشهير، الذي انعقد في نيقيا، قديمًا، وتسمى الآن بإزنيق، وهي في آسيا الصغرى عام ٣٢٥ ميلادي، تحت رعاية الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير، حيث تقرر اعتماد هذه الأناجيل الأربعة فقط، وإحراق الباقية منها، ولذا يطلق عليها لقب الأناجيل القانونية أو المعتمدة.

ومن الواضح: أن الإنجيل المشار إليه في القرآن الكريم هو غير الأناجيل القانونية المعتمدة هذه، ولكن المعني به أصل الوحي الذي نزل شفاهة على عيسى المسيح # وهو المشار له بين معاصريه بالاسم اليوناني إيفان جليون -أي: البشارة السارة- وقد اشتق منه اسم الإنجيل باللغة العربية، ويحتمل أن الأناجيل المتعددة اشتقت منه بعض موادها، وبعض التعاليم المنسوبة إلى عيسى المسيح # .

فتطلق النصرانية على الدين المنزل من الله تعالى على عيسى # وكتابها الإنجيل، وأتباعها يقال لهم النصارى، وفي العصور المتأخرة أطلق عليها المسيحية، وعلى أتباعها المسيحيون، نسبة إلى المسيح عيسى ابن مريم # مع أن الله سماهم بالنصارى، غير أنهم يفضلون تسميتهم بالمسيحيين؛ إمعانًا منهم في الانتساب إلى المسيح، وتخلصًا من مقت المسلمين لاسم النصارى الذي جاء ذمه في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة: ١١٣].

ولكن النّصارى غيرت وبدلت وحرفت نصوص الإنجيل، وعددت أناجيلها، وتحول أتباعها عن التوحيد إلى الشرك، ثم نسخت بالإسلام فأصبحت باطلة لتحريفها ولنسخها كاليهودية. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

ونْخلُص إلى نتيجة هامة بأن كل ما كتب من الأناجيل، ونسب إلى فرد بعينه، قد انقطع السند في نسبته لكاتبه، وقد حدث ذلك فعلًا، فقبل سنة ٣٦٤ ميلادي لم يعترف بصحة الرسائل السبع، وهي رسالة بولس للعبرانيين، ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يوحنا الثانية ورسالة يوحنا الثالثة، ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا، ورؤية يوحنا التي تُسمى الكتاب النبوي، ولم يُحكم بصحة هذه الكتب إلى مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤، أما قبل سنة ٣٢٥ ميلادي لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس، وآخر كتاب من هذه الكتب كتب في القرن الأول، فبين آخر كتبهم تدوينًا في زعمهم ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين.

وقد وقع بهم من الأحداث في هذه المدة ما يذهب باللبِّ، ويُضَيّع الرشد، وينسي المرء معه كل شيء، وأن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد، فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة ٣٠٣ ميلادي أمرًا بهدم الكنائس، وإحراق الكتب، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عبادتهم، فنفذ الولاة الأمر، فهدموا الكنائس، وحرقوا الكتب، وأتوا على كل ما للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب هدمًا وتحريقًا، ومن سبق إلى ظنهم أنه أخفى كتابًا عذبوه عذابًا شديدًا حتى يعلنه فيحرق.

أما الزبور: فهو صحف داود # لم يثبت أن مصنفه فلان بعينه الموجود الآن، ولم يعلم زمان جمع الزبورات في مجلد واحد، ولم يتحقق أن أسماءها إلهامية أو غير إلهامية، وقد حكم بعض رجال دينهم على كتاب نشيد الإنشاد، بإخراج هذا الكتاب من كتب العهد العتيق معللًا ذلك بقوله: "لأنه غناء نجس". وقال آخر ويدعى "بوشتن": "إنه غناء فسقي فليخرج من الكتب المقدسة".

وجوب الإيمان تفصيلًا بالقرآن الكريم، وماذا يعنى بهذا؟

وأما الإيمان بالقرآن الكريم؛ فيعني الإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور، وبيان وشفاء للأمم التي نزلت عليها، وأما القرآن الكريم فلا بد في الإيمان به من امتثال أوامره، واجتناب مناهيه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناء الليل والنهار، والدفاع عنه لتحريف المغالين وانتحال المبطلين، والنصيحة له ظاهرًا وباطنا بجميع معانيها، فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، الذي يتحدى الأجيال

كلها أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

روى الترمذي عن علي بن أبي طالب > أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت: يا رسول الله، وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢]، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)).

وإنّ هذه الأخبار ومثلها كثيرٌ تدل على منزلة القرآن الكريم في الإسلام، وأنه العصمة من الزيغ، وأنه يشتمل على شرائع الإسلام كلها، والعلماء يجدون فيه المعين الذي لا ينضب، وأن كل ما فيه حق، وأنه مصلحة الدنيا والأخرى، ما من خبر إلا له في القرآن أصل معتمد، فما ترك الله الإنسان سدى، وقد قال وقوله الحق: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فيه عبر الماضين، وأخبار كل النبيين، فهو كتاب الله الكامل، فيه معاني كل الكتب المنزلة على الرسل، وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم، وفيه العظات، وفيه أعلى الآداب الإنسانية، وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين،

وفيه تعليم الإنسان الاتجاه إلى الكون، وتعرف ما فيه، والأخذ بالعلم من قوادمه وخوافيه، وفيه الدعوة إلى العلم بكل دروبه من علم الإنسان، وعلم النفس، وعلم الكون، وإلى العلم بالنجوم في مسالكها، والسموات وأفلاكها، والأرض في طبقاتها، فيه الدعوة إلى العلم بما لم يعلم، وطلبه في كل مداراته. خاطب الله تعالى به أولياءه فعرفوه، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه، وكان حقًّا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ذلك هو كتاب الله تعالى، بما حمل من معان وتكليف، وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا هو ما يتعلق بوجوب الإيمان تفصيلًا بالقرآن الكريم، وبكل ما جاء فيه من عند الله سبحانه وتعالى تشريعًا وتوجيهًا وتعليمًا.

تابع الإيمان بالكتب السماوية - الإيمان بالأنبياء والرسل (١)

عناصر الدرس

معنى كلمة القرآن، والاستدلال أن منزلته تختلف عن الكتب السماوية

معنى كلمة القرآن:

القرآن هو كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ منجمًا، أي: مجزءًا متتابعًا، في مدى اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنتين وعشرين يومًا، وكلمة قرآن إذا أُريد بها القراءة، وجب تحقيق الهمزة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] فإن المراد بالقرآن هنا القراءة في صلاة الفجر، وهي مشهودة تشهدها الملائكة، كما يقول المفسرون.

وإذا أُريد بكلمة القرآن الكريم التعريف بالكتاب العزيز، وجب تسهيل الهمزة، فتنطق الكلمة مضمومة القاف مفتوحة الراء: قُرَان، فقد روى ابن منظور عن الشافعي > أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين، فكان يقول: "القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ مِن قرأت، ولكنه اسم للتنزيل العزيز مثل التوراة والإنجيل".

الاستدلال على أن منزلة القرآن الكريم تختلف عن الكتب السماوية:

وسأستدل بكلام لبعض المستشرقين، وهذا يعطي دلالة أقوى لمن يقرأ ويسمع هذا الكلام، على أن القرآن الكريم محفوظ، ولم يحرف، وله منزلة تختلف عن الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل. يقول مؤلف كتاب (الإسلام كبديل): "والقرآن ليس آخر الكتب فحسب، بل هو أهمها على الإطلاق، وإن لم يكن هو الأصل الأوحد للإسلام، يبلغ عدد سوره مائة وأربع عشرة سورة، ذات ستة

آلاف ومائتين وست وثلاثين آية، وقد نزل على محمد ﷺ منجمًا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ما بين عامي ٦١٠ إلى ٦٣٣".

ثم أنتقل إلى مؤلف آخر وهو صاحب كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) يقول: "إن القرآن كُتب في الحال وقت نزوله، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وكانوا يرددونه أثناء صلواتهم، وقد جمعت سور القرآن الكريم عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة، وهذا هو الكتاب الذي بين أيدينا، وخلافًا لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة؛ لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافًا لما يتصوره كثير من المسيحيين، ثم يضيف: فالقرآن كما نرى يذكر حقائق العلم، وأن للعلم فيها كلمته، وذلك في عدد ضخم من الآيات التي وردت في القرآن الكريم، إذا ما قورن بما ورد منها في التوراة".

يريد المؤلف أن يؤكد أن القرآن الكريم قد تعرض لكثير من الحقائق العلمية منذ ألف وأربعمائة سنة، وأن هذه الحقائق العلمية حينما يريد العلماء المتخصصون في مجالها التحقق منها، يجدونها مطابقة لقواعد العلم الحديث بعد ١٤٠٠ عام، ثم يؤكد إذا ما قورن بما ورد منها في التوراة، وليس ثمة أي مقياس مشترك بين السمة للأخبار التوراتية، المجابهة للعلم، وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية الواردة في القرآن الكريم، ولا أحد من هذه كلها يصطدم مع وجهة النظر العلمية، أي: الذي ورد في القرآن لا يصطدم، وأما الذي ورد في التوراة فكله يصطدم تقريبًا معها.

فهذه الرسالة الخاتمة، التي أُنزلت على سيد البشر محمد رسول الله ﷺ فقد تكفل الله بحفظها، ولم يكل حفظها إلى البشر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ومن أسباب هذا الحفظ تيسير الله لتلاوته وحفظه. قال

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] وقد نال هذا القرآن الكريم العناية والرعاية من الأمة، فاهتموا بتدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه وأخباره وأحكامه، فقد وفق الله هذه الأمة لذلك ليتم له الحفظ الإلهي، الذي وعد الله به ؛ ليبقى هذا الكتاب محفوظًا من التحريف والتبديل والزيادة والنقص، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الإيمان بالأنبياء والمرسلين

النبي في اللغة: مشتق من النبأ وهو الخبر، كما قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النبأ : ١ ، ٢] وسُمي النبي نبيًّا لأنه مخبر للناس وهو مخبَر من الله، أي : أن الله أخبره وأوحى إليه، فهو مخبر عن الله تعالى أمره ووحيه، وهذا المعنى يأتي في قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩]. أي : أخبر عبادي أني أنا الغفور الرحيم.

وقيل : النُّبوة مُشتقة من النَّبْوة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبي على عَلَم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي أن النبي ذو رفعة في الدنيا والآخرة، والأنبياء هم أشرف الخلق والأعلام التي يهتدي بها الناس.

أما معنى الرسول من حيث اللغة: فنأتي إلى معنى الإرسال، فالإرسال في اللغة : التوجيه ؛ فإذا بعثت شخصًا في مهمة فهو رسولك، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعث، أخذًا من قول العرب : جاءت الإبل رسلًا، أي : متتابعة، وعلى ذلك فالرسل إنما سموا بذلك لأنهم وجهوا من قِبل الله تعالى. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون : ٤٤].

وعليه؛ فالإيمان برسله هو الرُّكن الرّابع من أركان الإيمان، ما هو الرسول؟ الرسول هو كل من أوحي إليه وأمر بالتبليغ. وما هو النبي؟ كل من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ.

ونريد أن نناقش هذا التعريف، وهل اتفق عليه العلماء أم اختلفوا؟ وما هو التعريف الأرجح؟ الفرق بين الرسول والنبي بالتعريف الذي ذكرناه، قد أقره قوم من العلماء، وذهب آخرون إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ولكن الذي يقول لا فرق، الدليل على بطلان قوله يؤيده سؤال السائل لنبينا ﷺ، فقد جاء في صحيح ابن حبان سائل يسأل الرسول ﷺ عن عدد الأنبياء، فقال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر)) وفي رواية: ((وأربعة عشر)).

ولكن الأولى عدم حصرهم في عدد معين؛ لأن الحديث ضعيف كما أشار في هذا الحكم صاحب كتاب (لوامع الأنوار البَهية) ولم يُقو هذا الحديث بل ضعفه، ويَبْطُل الرأي الذي يقول أنه لا فرق بين النبي والرسول بهذا الحديث، حتى وإن كان ضعيفًا؛ لأنه هناك فرق بين النبي والرسول سأذكره الآن، ويدل على الفرق بين النبي والرسول ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول، وأن العطف في اللغة يقتضي المغايرة، والشائع عند العلماء أن الرسول أعم من النبي، فالرسول هو كل من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

وهذا الرأي في الفرق بين النبي والرسول قد يعترض عليه البعض؛ من حيث إن الله أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢] فالإرسال في الآية يقتضي من النبي

البلاغ، وأن تركه البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، وقد ورد عن الرسول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: ((عرضت عليّ الأمم؛ فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد)) فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنهم يتفاوتون في الاستجابة لهم، فما التعريف الراجح إذًا؟

التعريف الراجح هو التعريف الذي يقول: أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، وأن النَّبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله. وهذه هي مهمة الأنبياء، ودليل ذلك: ((قد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي قام نبي)) وأنبياء بني إسرائيل كلهم مبعوثون بشريعة موسى وهي التوراة، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهذا دليل على أن لبني إسرائيل أنبياء كثيرين، وكانوا يدْعون بشريعة موسى وبتوراته.

من هم الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم على وجه التفصيل؟

فنقول: وأما الأنبياء والمرسلون؛ فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلًا سواهم غير الذين سماهم الله، وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم، إلا الله تعالى الذي أرسلهم، وأما الأنبياء والمرسلون الذين ذكرهم الله في كتابه بأسمائهم فكم عددهم؟ فهم خمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا، فذكر في مواضع متفرقة منهم نبينا محمد ﷺ وآدم وهودًا وصالحًا وشعيبًا وإسماعيل وإدريس وذا الكفل.

وسأذكر الدليل فقد ورد قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] وقد ورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

ثم ذكر ﷻ ثمانية عشر منهم في موضع واحد. قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

ومن هؤلاء الخمسةُ والعشرين أربعة من العرب، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشُعيب، وقول النبي ﷺ لسيدنا أبي ذر وهو راوي الحديث: ((ونَبِيُّك يا أبا ذر))، ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل: العرب العاربة، وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وهود وصالح -عليهما السلام- كانا من العرب العاربة.

وجوب الإيمان إجمالًا بجميع الأنبياء

فيجب علينا الإيمان بمن سمى الله في كتابه، ونؤمن بهم تفصيلًا، ونؤمن إجمالًا بما لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ ﴾ [النساء: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾ [غافر: ٧٨] فنؤمن بجميعهم تفصيلًا فيما فصل، وإجمالًا فيما أجمل، ويجب أن نؤمن بأنهم

بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانًا شافيًا واضحًا، لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل له خلافه.

هل البشر في حاجة إلى إرسال الرسل؟

هذا سؤال نتوجه به إلى الفلاسفة، الذين يريدون القول بأن البشر والإنسانية ليست بحاجة إلى إرسال الرسل، وأن الإنسان يمكن له بعقله القاصر أن يصل إلى معرفة الله، ولكن نرد عليهم فنقول: أن حاجة البشر إلى الرسل لا يمكن أن تنقطع، وحاجة البشر إلى الرسل فوق حاجتهم إلى كل شيء، فإن الرسالة روح العالم ونوره وحياته.

ثم يبين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الحاجة إلى الرسل والرسالات بقوله: "الرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينا له من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات" انتهى كلامه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ثم وصف شيخ الإسلام حال الكافر فقال: "وأما الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حي؛ بسبب عدم الإيمان، وأما الإيمان الذي يحصل بتبليغ رسالات الله للعبد، ويحقق لهم السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فإن الله ﷻ جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما

يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعًا -أي: الرسل- بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وأن هذا الطريق له أصول ثلاثة:

الأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

الأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

الأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب، وأن هذه الأصول الثلاثة هي مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها بمفرده، ومن هنا كانت الضرورة والحاجة إلى إرسال الرسل؛ لمعرفة الله ﷻ حق المعرفة، ومعرفة شرائعه، ومعرفة اليوم الآخر والجنة والنار".

وظائف الرسل ومهماتهم

لما كانت حاجة البشر مُلحة في إرسال الأنبياء والرسل من عند الله، فقد بيّن لنا القرآن الكريم عمل الرسل اتجاه هؤلاء البشر.

فكان أول عمل يلزمهم: مهمة تبليغ رسالتهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] فكانت مهمتهم الأولى هي إبلاغ هذه الرسالة، التي حملوا أمانتها في تبليغ العباد، ولم تكن مهمة التبليغ بالأمر الهين، بل كانت تحتاج إلى شجاعة وقوة في الحق، وإقدام في

المواجهة وعدم خشية الناس ؛ لأنهم يبلغوا ما يخالف المعتقدات الفاسدة. قال تعالى :
﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩].

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله ، من غير زيادة ولا نقصان ؛ فإن كان الموحى به ليس نصًّا يُتلى ، فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم ، وقد يكون البلاغ بتوضيح وتبيين النص الذي أنزله الله ، وذلك لأن الرسول أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومراميه ، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤].

الوظيفة الثانية من وظائف الرسل ومهماتهم : الدعوة إلى الله ، لا تقف مهمة الرسل عند بيان الوحي المنزل عليهم من عند الله ، ولكن يجب عليهم دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] وكل رسول قال لقومه : اتقوا الله وأطيعوني.

وقد ضربت الملائكة للرسول ﷺ مثلًا توضح فيه دوره وتبين فيه وظيفته ، ففي الحديث : ((إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلًا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا ، ثم بنى فيها بيتًا ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول الله ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها)) رواه البخاري والترمذي.

ومن وظائف الرسل ومهماتهم: أنهم مبشرون ومنذرون، فدعوة الرسل إلى الله تعالى أساسها توحيد الله وإقامة شرعه، وهي تقترن دائمًا بالتبشير والإنذار. قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف: ٥٦] وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] ويعدونهم بالعز والأمن والتمكين. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

وكذلك: يخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي، بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] ثم يبشرون الطائعين بالجنة في الآخرة ونعيمها بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣] ويخوفون المجرمين والعصاة من عذاب الله في الآخرة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤].

ثم من مهمات الرسل ووظائفهم: إصلاح النفوس وتزكيتها، فالله تعالى رحيم بعباده، يحيي نفوسهم بوحيه، وينيرها بنوره، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإسلام والحق ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ولا يتحقق هذا إلا بتعاليم ربّهم، وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته، وتعريفهم بملائكته وكتبه

ورسله، وما ينفعهم وما يضرهم: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وكذلك من وظائفهم ومهماتهم: تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة، فقد كان الناس في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة، يعبدون الله وحده ولا يشركون به، فلما تفرقوا واختلفوا أرسل الله إليهم الرسل؛ ليعيدوا الناس إلى الطريق المستقيم، وينتشلونهم من الضلال. قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] فكل رسولٍ يقوِّم الانحراف الحادث في عصره، فنوح # أنكر على قومه عبادة الأصنام، وكذلك إبراهيم، وغيرهم كثير.

فكل هذه الجرائم التي ارتكبتها الأمم خروج عن الصراط المستقيم، فكانت مهمة الرسل أن يبينوا لهم الهدى، الذي يدلهم على الصراط المستقيم، ويحاربون الخروج عليه أيًا كان.

ومن وظائف الرسل ومهماتهم: إقامة الحجة. قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] فالله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ كي لا يبقى للناس حجة إن عذبهم يوم القيامة، فلو أهلكهم الله بعذابٍ جزاء كفرهم قبل أن يرسل إليهم رسولًا لقالوا: ألا أرسلت إلينا رسولًا كي نعرف مرادك، ونتبع آياتك وشرعك، ونسير على النهج الذي تريد. يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين، يأتي الله بكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجة.

يقول تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

وآخر وظيفة من وظائف الرسل ومهماتهم: قيادة الأمة، فأتباع الرسول الذين يؤمنون بالرسل يكونون جماعات تحتاج إلى من يقودهم، ويدبر أمورهم، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم. قال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨] وطاعتهم في كل أمر واجبة. قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا فقد كان شعار المسلم دائمًا السمع والطاعة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] وهذا هو حال المؤمن الصادق بين ربه، والمطيع لرسوله ﷺ عليه وجوب الطاعة لما أمر الله ورسوله.

الإيمان بالأنبياء والرسل (٢)

عناصر الدرس

تعريف الوحي، وأقسامه

تعريف الوحي من حيث اللغة:

الوحي من حيث اللغة بمعنى: أوحي إليه ووحيت إليه وأوحيت إليه، وكل هذه ترجع إلى معنى، بمعنى: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه. ويطلق الوحي في اللغة أيضًا على الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وأصل الوحي من حيث المعنى اللغوي هو الإشارة السريعة، ولكن القول الجامع في معنى الوحي اللغوي: أنه الإعلام الخفي السريع، الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى على غيره.

أما تعريف الوحي شرعًا: فنُلاحظ أن الوحي بالتعريف الشرعي انقسم العلماء في تعريفه إلى قسمين: فمنهم من عرفه بأنه هو إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. وذهب بعض العلماء بتعريف آخر؛ فقالوا: الوحي هو عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قِبل الله، بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل في سمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما يطلب، من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بالوجدان الذي يأتي في النفس، مثاله الجوع والعطش والحزن والسرور.

هذا التعريف الثاني نلاحظ فيه أنه اشتمل على أنواع الوحي الثلاثة، الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

سوف نقسم الحديث عن الوحي في الآية إلى ثلاثة أقسام:

الآية ذكرت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] فلفظ الوحي في الآية الكريمة هو: إلقاء المعنى في القلب، وقد يُعبر عنه بالنفث في الروع، وهو بضَمّ الرّاء، أي: القلب والخلد والخاطر، وفي الحديث: ((إنّ الروح الأمين نفث في روعي)) والروع بالضم: القلب والعقل، وكلمة الخلد بفتحتين، أي: بفتح الخاء واللام، البال، يقال: وقع ذلك في خلدي، أي: في بالي أو في قلبي.

فالوحي هنا: إلقاء المعنى في القلب، أو من وراء حجاب، كما في الآية، وهو الكلام من وراء حجاب بحيث يسمع النبي أو الرسول كلام الله، من حيث لا يراه، كما سمع موسى # النداء من وراء الشجرة.

القسم الثالث من أقسام الوحي، كما هو في الآية الكريمة: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهو ما يُلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله، فيراه متمثلًا بصورة رجل أو غير متمثل، ويسمعه منه أو يَسمع الرسول منه ويعيه بقلبه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

وفي هذا دليل على وجود ملك روحاني مُستقل، نزل من عند الله على رسول الله ﷺ فهذه الآية الكريمة تبطل قول من يزعم كون الوحي الشرعي، يأتي من داخل نفس النبي فائضًا منها، وإنما الوحي هو من عند الله منزل على نبيه، وليس من نفس النبي فائضًا فيها أو فائضًا منها.

أما صفة مجيء الملَك إلى الرسول ﷺ فينقسم كذلك إلى أقسام:

القسم الأول: أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، ولم يحدث هذا للرسول محمد ﷺ إلا مرتين.

القسم الثاني: أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، فيذهب عنه وقد وعى الرسول ﷺ عنه ما قال.

القسم الثالث: أن يتمثل له الوحي رجلًا فيكلمه ويخاطبه، ويعي عنه قوله، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ.

بشائر الوحي:

كان الرَّسُول ﷺ قبل معاينته للوحي يرى ضوءًا، أو يسمع صوتًا. قال الإمام النووي: "يسمع الصوت ويرى الضوء". قال القاضي: "أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء، أي: نور الملائكة، أو نور آيات الله، حتى رأى الملك بعينيه وشافهه بوحي الله".

تأثره ﷺ بالوحي:

فقد أخبرتنا السيدة عائشة ما يفيد من تأثره ﷺ بالوحي، فقالت: ((إن الرسول ﷺ كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا)) ومعنى يفصم عنه، أي: يقلع عنه.

وفي حديث آخر عن عائشة < : ((إن كان ليوحي إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها)) أي أن هذه الراحلة تبرك و تلصق عنقها بالأرض، وهذا من شدة الوحي على الرسول ﷺ.

بيان أن التوحيد هو لب دعوة الأنبياء والمرسلين

ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، والإسلام هو الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى، بفعل أوامره وترك نواهيه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فلب دَعوات الرُّسل وحقيقة الرسالات السماوية، كلها تدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، لا شريك له، ونبذ ما يعبد دونه ﷻ، فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، منذ خلق الإنسان، وهو دين الفطرة والملة الحنفية السمحة، التي لا نجاة لعبد إلا باتباعها اعتقادًا وعملًا.

فتوحيد الله ﷻ أرسل به رسله من أولهم إلى آخرهم، يدعون إليه أولًا وقبل كل أمر، فلم يدعوا إلى شيء قبله، فالأنبياء والرسل وإن اختلفت شرائعهم، في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام، لم يختلفوا في الأصل، الذي هو إفراد الله ﷻ بتلك العبادات، سواء اتفقت عبادات الأنبياء والرسل أو اختلفت، فهم لا يشركون مع الله أحدًا غيره في عباداتهم، كما قال ﷺ: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد)) وأخرج مسلم: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)).

وفي اللغة بنو العلات: أولاد الرجل من نسوة شتى، وقد أخبر الله ﷻ عن اتفاق دعوة رسله إجمالًا مرة وتفصيلًا مرة.

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. في هذه الآية الكريمة دليل على وحدة الدين، الذي شرعه للرسل الخمس أولو العزم. قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]. ومرة ينص على أنه أرسل الرسل جميعًا بعقيدة التوحيد. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي نص آخر يبين الله ﷻ أن عقيدة التوحيد لله الواحد الأحد، فلا معبود سواه ولا معبود غيره. إنها كانت وصية الرسل والأنبياء لمن بعدهم: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وأما ذِكرُ مَقامات التفصيل في هذا الباب، فمما ذكر عن نوح # قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ومما ذكر عن عاد وهود قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥] وإبراهيم قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

إلى آخره من الآيات، التي تبين أن عقيدة الأنبياء والرسل من أولهم إلى آخرهم هي عقيدة التوحيد لله الواحد الأحد.

صفات الرسل البشرية

لقد تَنَاول القُرآن الكريم التأكيد على أن أنبياء الله ورسله هم بشر من جنس بني آدم، وليسوا من جنس الملائكة، وقد كان سبب هذا التأكيد القرآني لبشرية الرسول، أو لبشرية الرُّسل جميعًا، ما اعترض عليه المنكرون من الرسالات استكبارًا أو حقدًا أو حسدًا، أو حبًّا في الغي والضلال، وبعدًا عن الإيمان، والأخذ بشرائع الله تعالى، ولذلك أكد الله ﷻ أن الرسل من البشر بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت: ٦] وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١].

وفي هذا دليل على أن الله يرسل رسلًا من البشر أنفسهم، وذهب قوم اعترضوا على اختيار الله رسله من البشر، معتبرين ذلك إلى المظهر الخارجي للرسول، ونظروا إليه على أنه جسد يحتاج إلى الطعام والشراب، ويحتاج إلى النوم، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته، وقد عبر القرآن الكريم على اعتراضهم هذا بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧].

ثم بين القرآن الكريم وجهًا آخر من كونهم بشرًا، فقد سجل القرآن الكريم اعتراض الكافرين على كيفية إرسال الله سبحانه بشرًا رسولًا، ولم يكن ملكًا، فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] وقد عدوا أتباع الرسل كونهم بشرًا أمرا قبيحًا. قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤] وقال تعالى: ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤].

وقد كان اعتراض أعداء الرسل على بعثهم من البشر، اعتراض يحتاج إلى رد على أقوالهم:

فالرّد الأول: أن الله اختارهم بشرًا لا ملائكة؛ لأنهم أعظم في الابتلاء والاختبار.

الثاني: أن في هذا إكرامًا لمن سبقت لهم منه الحسنى، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلًا تكريم وتفضيل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ [مريم: ٥٨].

الثالث: أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون أن يكونوا قدوة وأسوة لأممهم.

الرابع: صعوبة رؤية الملائكة؛ لأن الاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بالسهل، فالكفار عندما يقترحون أن يكون الرسل إليهم ملائكة، لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم جراء ذلك، لذلك كان إرسال الرسل من البشر أمرًا ضروريًّا؛ كي يتمكنوا من مخاطبتهم، وأخذ الشريعة عنهم، وفهمها فهمًا صحيحًا، وسؤالهم عما غمض عليهم، فعبر الله ﷻ في كتابه الكريم ردًّا على قولهم: لو بعث الله إلينا رسلًا ملائكة، فأعلمهم بأنه لو بعث رسله إليهم ملائكة لما أمكنهم ذلك. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

وإذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة، والتلقي عنهم بيسر وسهولة؛ فيقتضي هذا لو أرسل الله ملكًا رسولًا إلى البشر أن يجعله رجلًا من جنسهم. قال

تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ثم بين سبحانه فضله ورحمته، وحكمته في إرسال رسل من جنسهم أي: جنس البشر، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهو أشرف الخلق محمد ﷺ.

ومقتضى بشرية الأنبياء والرسل أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفك عنها البشرية، فمن ذلك كونهم جسدًا يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].
ومن الصفات البشرية التي تتحقق في الأنبياء والرسل أنهم ولدوا كما ولد البشر، ولهم آباء وأمهات وأعمام وعمات، وأنهم يتزوجون ويولد لهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

ومن ذلك يصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر من الموت، فقد جاء عن إبراهيم خليل الرحمن أنه قال عن ربه: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩- ٨١].

ومن مُقتضى بشريتهم أنهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر، فقد سجن يوسف # ومكث في السجن بضع سنين ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] الآية، وقد أصيب رسول الله ﷺ في معركة أحد، فأدموه وكسروا رباعيته، وأخرجوه وصحابته من ديارهم، فهاجروا من مكة إلى المدينة المنورة.

ومنهم من قتلوا كذلك: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقد أصيبوا -الأنبياء والرسل- بالأمراض كأيوب # : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ومن مقتضى بشريتهم أنهم يقومون بالأعمال والأشغال التي يقوم بها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول الكريم ﷺ بالتجارة قبل البعثة، ونبي الله موسى نص القرآن على أنه رعى الغنم في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾ [القصص: ٢٧] الآية، وأن كل الأنبياء تحقق لهم رعي الغنم، ففي حديث جابر قالوا: أي يسألون رسول الله: أكنت ترعى الغنم؟ أجاب ﷺ قال: ((وهل من نبي إلا وقد رعاها)) رواه البخاري في صحيحه.

والذي قاله العلماء في حكمة رعي الأنبياء للغنم، قالوا: ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها -أي: سياسة الغنم- إلى سياسة الأمم.

ومن الأنبياء الذين اشتغلوا وعملوا بأعمال البشر: داود # فقد كان حدادًا يصنع الدروع. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ونبي الله زكريا كان يعمل نجارًا.

بيان أن الرسل لا يملكون شيئًا مع الرب:

وبعد الحديث عن تحقيق بشرية الرسل، من أنهم يمرضون وينامون ويشفون ويتاجرون، ويرعون الغنم، ويتعرضون لكل أنواع البلاء في الحروب والغزوات،

وطردهم من ديارهم، وتعلمهم للصنعة لكي يحققوا الأخذ بالأسباب في سبل الرزق، كل ذلك يدل على أنهم لا يملكون شيئًا لأنفسهم لا من نفع ولا ضر، ولا كذلك لغيرهم من البشر، فيثبت أن جميع الأنبياء والرسل ليس لهم شيء مع الله ﷻ، فهو المتصرف في ملكه كيف يشاء، فعال لما يريد، فكما أن الأنبياء والرسل لم يستطيعوا دفع الضر عن أنفسهم، وذلك لأن لله حكمًا لا يدركها العقل الإنساني القاصر، فالله أعلم بمراده، وهو على كل شيء قدير، فينتفي عنهم أي صفة من صفات الرب ﷻ، وذلك لحاجتهم إليه.

بيان أنّ الرُّسل ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية:

وهنا نريد أن نؤكد أن الرسل على كرامتهم على الله، وأن الله خلقهم يمثلون الكمال الإنساني في أرقى صوره، خَلقا وخُلقًا، وقد أثنى الله على نبينا محمد ﷺ ثناء عطرًا بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وأنهم خير الناس أنسابًا، وأنهم لا يكونون أرقاء، يؤكد هذا السفاريني يقول: "الرّق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة، ومن الكمال كذلك أنه اختار جميع الرسل من الرجال، وأنهم أعطوا العقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة، وغير ذلك من المواهب والقدرات، التي لا بد منها لتحمل الرسالة. كل هذه الصفات التي جمعها الله فيهم، إلا أنهم ليس فيهم من صفات الألوهية شيء، وهم يعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدّعون شيئًا من صفات الله تعالى، وليس فيهم كذلك من صفات الملائكة شيء؛ إذ أثبتنا لهم أنهم أجسام، وأنهم يأكلون ويشربون وينامون، كل هذه الصفات ليست من صفات الملائكة، فثبت أنهم لا يتصفون بأي شيء من صفات الملائكة كذلك".

الأمور التي تفرد بها الأنبياء دون سائر البشر:

منها: الوحي، وهو أن يوحي الله إليهم، وإذا أردنا أن نثبت ما للأنبياء من صفات، تفردوا بها عن سائر البشر، فأول شيء نثبته لهم من صفات، أن الله اختصهم بإنزال الوحي عليهم دون سائر البشر. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] وهذا الوحي الذي يأتيهم من عند الله تعالى يجعلهم يفارقون الناس، ويختلفون عنهم في عدة أمور:

١. تكليم الله لبعض الأنبياء، كتكليم الله موسى # .

٢. اتصالهم ببعض الملائكة، كاتصال نبينا بجبريل # و ﷺ.

٣. وأن الوحي يفرق بينهم وبين البشر، بأن يخبرهم الله بأشياء من الأخبار الماضية، كقصة أهل الكهف، وقصة خلق آدم، وقصة مريم، وقصة يوسف، والغيوب الآتية، كقوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ٢، ٣] وغيره كالإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس، والعروج به إلى السموات العلا، ورؤيته للملائكة وللأنبياء، واطلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعذبين في قبورهم وسماعه تعذيبهم.

٤. ومما اختص الله به أنبياءه أن أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، ودليل ذلك عن أنس > في حديث الإسراء: "والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم". هذا الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه.

وقد يقول قائل أن هذا قول أنس > غير أن ابن حجر يرد فيقول: أنه يرى أن مثل هذا القول لا يُقال من قِبل الرأي من أنس، وقد ورد مما يؤكد ذلك، أي أن الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فقد صح عنه أنه قال: ((إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))، وقال ﷺ عن نفسه: ((إن عيني تنامان ولا ينام قلبي)).

٥. ومن الأمور التي تفرد بها الأنبياء عن البشر: تخيير الأنبياء عند الموت بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة < قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من نبي يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، فعلمت أنه خير)) رواه البخاري في صحيحه، وهذا دليل على تخيير الأنبياء عند الموت.

٦. ومما خص الله به أنبياءه بعد موتهم أمور:

أولها: أنه لا يقبر نبي إلا في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث: ((لم يقبر نبي إلا حيث يموت)) ولهذا فإن الصحابة } دفنوا الرسول ﷺ في الموضع الذي مات فيه، وهو حجرة عائشة < .

٧. ومما اختصوا به بعد موتهم أن الأرض لا تأكل أجسادهم، وهذا من إكرام الله لأنبيائه ورسله لهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، ففي الحديث: ((إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)).

الإيمان بالأنبياء والرسل (٣)

عناصر الدرس

تفضيل الله بين مخلوقاته

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨] وقد اختار الله من أرضه مكة المكرمة، فجعلها مقر بيته العتيق، وحرمها فجعل صيدها وقطع شجرها حرامًا، وجعل من دخلها آمنًا، وأوجب على الناس حج بيته العتيق، ثم اختار سبحانه من الشهور شهر رمضان، وفضله على باقي الشهور من العام، وفضل من الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم عرفة في العام، ومن الأسبوع يوم الجمعة.

وفاضل الله بين الملائكة، فاختار منهم الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء، فالأنبياء أفضل البشر، واختار الرسل من الأنبياء، فأفضل الأنبياء الرسل. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

ولا يفضل على الأنبياء من بني آدم أحد، من الصديقين والشهداء والصالحين، وفي هذا يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قوله: "وقد أجمعت الأمة على تفضيل الأنبياء على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين".

والدليل على فضل الأنبياء والمرسلين من الحديث، ما ورد عنه ﷺ أنه قال: ((ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر)) ويقرر هذا الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق، وأن أفضل رجل بعدهم هو أبو بكر الصديق.

وقد قسم الله عباده السعداء، الذين أنعم عليهم إلى أربع مراتب. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فأول هذه المراتب: الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون.

وقد كان اختيار الله لأنبيائه مبنيًّا على علم الله الحكيم الخبير، الذي نظر في معادن العباد وقلوبهم، واختار منهم، ثم اصطفى الأفضل والأكمل، وصدق الله ﷻ في قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فإن حكمة الله وعلمه قاضيان بألا تكون النبوة والرسالة صدفة، بل يمنحها الله للمستعد لها والقادر على حملها، وهم أبر الناس قلوبًا، وأشدهم تحملًا، وأرقهم طباعًا، فلا عجب أن يختار الله منهم ليكونوا أمناء على وحيه، وعاملين على إقامة دينه.

وأولو العزم من الرسل قد قيل فيهم أقوال كثيرة، بلغت إلى عشرة أقوال، كما عند ابن الجوزي، وسأذكر لكم منها القول الثامن، وهو الذي يقول: إنّ جميع الرسل أولو عزم، فإن الله لم يبعث رسولًا إلا كان من أولي العزم، أما أحسن هذه الأقوال ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة، أنهم: "نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهم".

ما ورد في القرآن الكريم على أن الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل. قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد ذكرهم الله في كتابه الكريم في أكثر من موضع في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧] وفي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد فضل الله من فضل من رسله بأشياء منها :

١. إعطائه خيرًا لم يعطه غيره.

٢. برفع درجته فوق درجة غيره.

٣. اجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه.

٤. قيامه بالأمر الذي وكل إليه.

وسموا بأولي العزم ؛ لأنهم اتصفوا بالحزم والجد والصبر وكمال العقل ، ولم يرسل الله تعالى من رسول إلا وهذه الصفات فيه مجتمعة ، غير أن هؤلاء الخمسة أصحاب الشرائع المشهورة ، كانت هذه الصفات فيهم أكمل وأعظم من غيرهم ، وهم الذين أمروا بالجهاد ، وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين ، لذا خصوا بالذكر ، وهؤلاء الخمسة هم الذين يتراجعون الشفاعة بعد أبيهم آدم # يوم القيامة ، حتى تنتهي إلى نبينا محمد ﷺ. فالقول بأن أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو قول ابن عباس وقتادة ومن وافقهما ، وهو القول المشهور.

ضلال من فضل الأئمة على الأنبياء

من الأمور التي يجب معرفتها أن الأنبياء والرسل هم أفضل البشر ، وأنّ الله فضلهم على الناس أجمعين ، وخصهم بخصائص لم يختص بها غيرهم ، بأن أوحى إليهم شرائعه ليبينوها للناس ، وعصمهم من الذنوب والمعاصي ، ولا يَصِحُّ لأحد أن يجعل من البشر أحدًا في درجتهم.

وقد أجمعت الأُمّة على ذلك ، ولكن قد خالف هذا الإجماع للأمة طوائف ، أهمها : الإمامية الإثنا عشرية ، هذه الطائفة تحمل اسم الشيعة الإمامية ، يدخل في

عمومها أكبر مذاهب الشيعة، القائمة الآن في العالم الإسلامي، والجامع لهؤلاء ما تدل عليه التسمية بعبارة الإمامية، فهم يقولون: إن الأئمة لم يعرفوا بالوصف بل عينوا بالشخص، كالإمام علي ثم من بعده أولاده من فاطمة: الحسن، ثم الحسين { . وهذا باتفاق الإمامية فيما بينهم على أن عليًّا وصي النبي ﷺ وهؤلاء هم المجمع عليهم، واختلفوا فيمن بعد ذلك على فرق مختلفة في الأئمة بعد هؤلاء.

فقيل: إنهم اختلفوا بعد ذلك على أكثر من سبعين فرقة، وهم يرون أن الخلافة بعد الحُسين > لعلي زين العابدين، ومن بعده لمحمد الباقر، ثم لأبي عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر، ثم لابنه موسى الكاظم، ثم علي الرضا، ثم لمحمد الجواد، ثم لعلي الهادي، ثم للحسن العسكري، ثم لمحمد ابنه، وهو الإمام الثاني عشر.

وإذا بحثنا عن منزلة الإمام عندهم، فهم يرون بالنسبة لسلطان الإمام في التشريع والتقنين، أن الإمام له السلطان الكامل في التقنين، وكل ما يقوله من الشرع، ولا يمكن أن يكون منه ما يخالف الشرع، وإذا كان الإمام له هذه المنزلة بالنسبة للتقنين، فقد قرروا أنه يكون معصومًا من الخطأ والنسيان والمعاصي، فهو طاهر مطهر لا تعلق به ريبة.

وقد قال الشريف المرتضي في كتابه (الشافي): "فقد ثبت عندنا وعند مخالفينا أنه لا بد من إمام في الشريعة، يقود بالحدود وتنفيذ الأحكام، وإذا ثبت ذلك وجبت عصمته".

ويقررون أن عصمته ظاهرة وباطنة، وأنها قبل أن تكون له وبعد توليه الإمامة، ويجوزون أن تجرى خوارق العادة على يد الإمام لتثبت إمامته، وأن الإمام ليس

وجوده ضروريًا فقط لبيان الشريعة، وتتميم ما بدأ الرسول ببيانه، بل هو ضروري لحفظ الشريعة وصيانتها من الضياع، فهو يتمها ويحميها.

يقول عالم من علمائهم المعاصرين في تفضيل الأئمة على الأنبياء: "إن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل".

وقال في موضع آخر ورد عنه عن الأئمة: "أن لنا مع الله حالات، لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء". وقد ذكر الألوسي -رحمه الله- في (مختصر التحفة) مبينًا قولهم في هذه المسألة فقال: "أجمع الإمامية على أن الأمير أفضل من غير أولي العزم من الرسل والأنبياء، وليس بأفضل من خاتم النبيين -عليه وعليهم السلام- وأما غيره من سائر أولي العزم فقد توقف فيه بعضهم، كابن المطهر وغيره، وهذا القول منهم مخالف لما ورد عن الأئمة منهم، فقد روى الكليني عن هشام الأحول عن زيد بن علي: أن الأنبياء أفضل من الأئمة، وأن من قال غير ذلك فهو ضال".

وخلاصة القول: أن القارئ لهذا الكلام، الذي اشتمل على دعاوى واسعة كبيرة لشخص الإمام، لم يقم دليل على صحته، والدليل قائم على بطلانه؛ لأن محمدًا ﷺ أتم بيان الشريعة، فقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] ولو كان ﷺ قد أخفى شيئًا، فما بلغ رسالة ربه، وذلك مستحيل، ولأنه لا عصمة إلا لنبي، ولم يقم دليل على عصمة غير الأنبياء، فبطل زعمهم بأن الأئمة أفضل من الأنبياء.

معنى النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء:

وردت نصوص تنهى المسلمين عن تفضيل بعض النبيين على بعض، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: ((لا تخيروا بين الأنبياء))

وحديث آخر: ((لا تفضلوا بين الأنبياء)) أي: لا تقولوا: فلان خيرًا من فلان، أو لا تقولوا: فلان أفضل من فلان، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى في تفضيل الرسل بعضهم على بعض: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن خلال النظر في الأحاديث، التي تنهى عن التفضيل، والنصوص القرآنية التي تدل على التفضيل، نجد أنه لا تعارض بينهما؛ وذلك لأن النهي في الأحاديث ينبغي أن يحمل على النهي في التفضيل، إذا كان على وجه الحمية والعصبية والانتقاص، هذا أولًا، أما ثانيًا: إذا كان هذا التفضيل يؤدي إلى خصومة أو فتنة، ونقل عن بعض أهل العلم أنه قال: "الأخبار الواردة في النهي عن التخيير بين الأنبياء، إنما هي في مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة؛ لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين، لا يؤمَن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر. فأما إذا كان التخيير مستندًا إلى مقابلة التفاضل لتحصيل الرجحان، فلا يدخل في باب النهي".

فضل الرسول الخاتم ﷺ

لقد فضل الله نبينا محمدًا ﷺ بأفضال كثيرة، ففي يوم الدين يكون سيد ولد آدم، بيده لواء الحمد، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه. يقول ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)).

وعندما يشتد الكرب بالناس في ذلك اليوم، يستشفع يستشفع الناس بالرسول ليشفع لهم عند الله؛ ليقضي بين عباده، فيتدافعها الرسل حتى يذهبوا إلى عيسى

-عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- فيقول -أي: عيسى-: ((اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)). هذا فضله ﷺ في يوم الدين.

وقد فضله الله تعالى في نفسه وفي دعوته وفي أمته بفضائل كثيرة، فمن ذلك أنه اتخذه خليلًا، ففي الحديث رواه مسلم: ((إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا)). وآتاه القرآن الكريم الذي لم يعط أحد من الأنبياء والرسل مثله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧] وخصه الله دون غيره بست لم يُعطها أحد من الأنبياء قبله، ففي الحديث: ((فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون)).

وجوامع الكلم في الحديث معناها: بأن يجمع في القول الوجيز المختصر المعاني الكثيرة الجامعة، وأما النصر بالرعب، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله، وأتباع رسوله ﷺ، ومعنى الحل للغنائم أنها كانت قبل ذلك محرمة، فقد كانت الغنائم تجمع ثم تنزل نار من السماء تحرقها، وهذا قبل سيدنا محمد ﷺ.

وفي الحديث: ((جعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا)) أي: من فقد الماء، أو من كان يجوز له التيمم بشروطه تيمم على الأرض، أو من التراب، فهي طهورٌ له، وجاز له كذلك أن يصلي في أي بقعة على الأرض طاهرة، وأرسل إلى الناس كافة عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم، وما بين اللونين، من كان في وقت بعثته ومن يأتي بعده حتى تقوم الساعة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وأرسله إلى الجن كما أرسله إلى الإنس.

والفضيلة السادسة أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي ولا رسول بعده ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

عموم بعثته ﷺ:

فالله أرسل رسوله محمدًا برسالته كافة للإنس والجن، يقول صاحب (العقيدة الطحاوية): "وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى وبالنور والضياء". والمقصود أن الله -تبارك وتعالى- اختصه بعموم الرسالة إلى الثقلين، ومعنى الثقلين أي: الإنس والجن، ولم يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلًا إلا باتباعه، والمقصود بقوله: "صرفًا" أي: توبة، والمقصود بقوله: "عدلًا" أي: فدية. "لم يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلا إلا باتباعه ﷺ ولا يصير أحد دار السلام التي دعا الله إليها عباده إلا من طريقه".

فهو ﷺ أكرم الرسل، وأمته خير الأمم، وشريعته أكمل الشرائع، وكتابه مهيمن على كل كتاب أنزل، لا نسخ له بعده ولا تغيير ولا تحويل ولا تبديل، أما كونه مبعوثًا إلى عامة الجن، فقد قال تعالى حكاية عنهم، أي: عن الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وكذا في سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم ﷺ أيضًا، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول.

وقال ابن عباس } : "الرسل من بني آدم ومن الجن نذر". وأما كونه مبعوثًا إلى كافة الورى، أي: إلى كافة الخلق، فقد صرح القرآن الكريم أن رسالة محمد # إلى الناس كافة، بخلاف من سبقه من الرسل، الذين أرسلوا إلى أممهم خاصة.

قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا # : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وأنذر من بلغه به إلى قيام الساعة.

ويقول الله تعالى آمرًا رسوله محمدًا ﷺ بإعلان هذه الحقيقة إلى الناس كافة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وأما الأدلة من الحديث على عموم بعثته ﷺ فهي كثيرة، منها قوله ﷺ: ((أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)).

ودليل آخر قوله ﷺ: ((لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)).

وقد اختلف في إرساله ﷺ إلى الملائكة على قولين:

أحدهما: أنه لم يكن مرسلًا إليهم، أي: إلى الملائكة، وبهذا جزم جمع من المحققين، ونقل الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء.

الثاني: بأنه ﷺ مبعوثٌ إلى الملائكة أيضًا، وقد رجح هذا الرأي الإمام السيوطي في كتابه (الخصائص) وزاد أنه ﷺ مرسل إلى جميع الأنبياء والأمم السابقة، من لدن آدم إلى قيام الساعة، وزاد أيضًا أنه مرسل إلى جميع الحيوانات، واستدل على ذلك بشهادة الضب له بالرسالة، وبشهادة الحجر والشجر له أيضًا بذلك.

ذكر بعض الأدلة والشواهد على نبوته ﷺ

وقد أيد الله رسوله ﷺ بأدلة تؤيد نبوته، فأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة: التي أهمها وأعظمها القرآن الكريم، الذي تحدى الله به أفصح الأمم وأبلغها، وأقدرها على المنطق، وأكثرها فيه اتساعًا، مع عظم محادتهم له ومشاقتهم فيه، وشدة حرصهم على رده، وهو ينادي عليهم بأبلغ عبارة وأوجزها وأمتنها وأجزلها، بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤] ثم ينتقل إلى تحد أقل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣].

ثم ينتقل إلى تحد أقل كذلك: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. ثم نادى عليهم بالعجز عن ذلك كله، فلا يقدر أحد منهم على شيء منه، وهو أن يأتوا بحديث مثله، أو يأتوا بعشر سور مثله، أو يأتوا بسورة من مثله، لا مجتمعين ولا متفرقين، لا في زمن واحد ولا في أزمان متعددة. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن الأدلة على نبوته ﷺ انشقاق القمر: قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: "سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر". وعن ابن مسعود قال: ((انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين؛ فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا)).

ومن الأدلة على نبوته حنين الجذع إليه ﷺ: كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ((أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة

من الأنصار أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا، قال: إن شئتم، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها)).

ومن الأدلة على نبوته ﷺ تسبيح الطعام: وتكثير القليل بإذن الله ﷻ ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وعناية الله له قبل البعثة وبعدها، ومن الأدلة على نبوته استجابة الدعاء، والإنباء بالغيب. قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ١- ٣] ومن الأدلة على نبوته إبراء المرضى، والإسراء والمعراج، ودلائل نبوته ﷺ أكثر من أن تحصى في الأسفار، فضلًا عن هذا المختصر، وقد جمعت فيها التصانيف المستقلات من المختصرات والمطولات.

بعض الأدلة على أنه ﷺ خاتم المرسلين:

ورسالة محمد ﷺ جعلت خاتمة لجميع الرسالات، وناسخة لما تقدم منها. قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فختمت هذه الآية عهد النبوة، وحكمت بألا نبي بعده، وكتابه خاتم الكتب، وفي الحديث ما رواه البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، وأنا العاقب)) وفي رواية لمسلم: ((وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)).

وعن أبي هريرة > أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. قال ﷺ: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)) رواه مسلم.

ومعنى ختم النبوة بنبوته ﷺ: أنه لا تبدأ نبوة، ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشريعته ﷺ وأما نزول عيسى # وكونه متصفاً بنبوته السابقة، فلا ينافي كونه ﷺ خاتم المرسلين، وذلك لأن عيسى # إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا ﷺ دون شريعته المتقدمة؛ لأنها منسوخة، فيتعبد بشريعة سيدنا محمد ﷺ بأصولها وفروعها، فيكون بذلك خليفة لنبينا ﷺ وحاكمًا من حكام ملته، بالنظر في كتاب الله الذي هو القرآن الكريم، وسنة رسوله محمد ﷺ.

كذب وضلال من ادعى النبوة بعده ﷺ:

قال صاحب (العقيدة الطحاوية): "وكل دعوة نبوة بعده فغي وهوى". وهذا النص يفيد أنه لا يمكن وجود نبي بعد خاتم الأنبياء والرسل، وهو رسولنا محمد ﷺ ولو أتى على وجه الفرض من يدعي النبوة، فالحكم عليه أنه كاذب في دعواه غير صادق، فلو قال قائل: أن المدعي للنبوة بعد خاتم الأنبياء محمد ﷺ قد يأتي بالمعجزات الخارقة، والبراهين الصادقة على دعواه، وهذا سؤال احتمالي لا على وجه الحقيقة، والجواب على هذا:

١. أنه لا يتصور أن يوجد وهو من باب المحال، أي: يستحيل وجود هذا الذي يدعي النبوة.

٢. أن الله تعالى لما أخبر أن رسوله محمدًا خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتي مدع يدعي النبوة، ولا تظهر أمارة كذبه في دعواه، وذلك لأنه ضد الرشاد، وهو عبارة عن شهوة للنفس، فتكون تلك الدعوة بسبب هوى النفس لا عن دليل، فتكون باطلة، فثبت أنه ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، ولا نبي مرسل بعده ﷺ.

الإيمان بالبرزخ وما يقع فيه (١)

عناصر الدرس

تعريف البرزخ

البرزخ في اللغةِ: الحاجز بين الشيئين والمانعُ من اختلاطهما وامتزاجهما، والبرزخ مابين الدنيا والآخرة من وقتِ الموتِ إلى البعث؛ فمن ماتَ فقد دخل البرزخ، وبرازخ الإيمانِ ما بين الشكِ واليقين، وقيل: ما بين أول الإيمانِ وآخره، وسُئِلَ ﷺ عن الرجل يجد الوسوسةَ، قال: ((تلك برازخ الإيمان)) يريدُ مابين أولهِ وآخره، وأول الإيمان الإقرارُ باللهِ ﷻ وآخره إماطة الذي عن الطريق، والبرازخُ جمعُ برزخ.

ولقد جاء ذكر البرزخِ في القرآن الكريمِ في مواضع ثلاث كُلها بالمعنى المتقدم، أما الآيات فهي: قال تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] يعني حاجزًا من قدرة الله قيل: حاجزًا خفي وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: حاجزًا، وقال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقد استعمل القرآنُ الكريم هذه اللفظة ليبينَ أنَ هناك عالمًا أخر يفصل بين الدنيا والآخرة يُمر بهِ الإنسان، قال الفراء وقولهِ تعالى ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. البرزخُ من يومٍ يموت إلى يوم يبعث.

وقال ابن القيم: عذاب القبرِ ونعيمهُ اسمٌ لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، وهذا البرزخُ يشرفُ أهلهُ فيه على الدنيا والآخرة، أما الإيمانُ بحياةِ البرزخ؛ فيجبُ على المسلمِ أن يعتقد اعتقادًا جازمًا لا يقبل الشك، ويُؤمن بأن عقيدتُنا توجب الإقرارَ بكل ما جاء عن الله ﷻ وعلى لسانِ رسوله ﷺ من

أخبارِ عالم الغيب؛ فإننا مطالبون بأن نؤمن باليوم الآخر، ومن الإيمانِ باليوم الآخر الإيمانُ بحياة البرزخ، وهو عذاب القبرِ ونعيمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومذهب سَلَف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكونُ في نعيمٍ أو عذابٍ: وأن ذلكَ يحصلُ لروحِهِ ولبدنه: وأن الروح َتبقى بعد مفارقَةِ البدنِ منعّمةً أو معذّبةً، وحقيقةُ البرزخِ يتعلقُ بكل إنسان سواءٌ قُبِرَ أم لم يقبر.

قال ابن القيم: إنه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه وهو مابين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وهذا البرزخُ مشرفُ أهلهُ فيه على الدنيا والآخرة، وسمي عذاب القبرِ ونعيمه، وأنه روضة من رياض الجنة، أو حفرةُ نار؛ باعتِبار غالب الخلق فالمصلوبُ والمحروقُ والغريقُ، وأكيلُ السباعِ والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيهِ أعماله وإن تنوعت أسباب النعيمِ والعذابِ وكيفياتِهما.

تعريف القبر:

القبرُ مدفنُ الإنسان، وجمعهُ قبورٌ، والمقبرةُ موضع دفن الموتى، وتُضمُ باؤها وتُفتح؛ فتقول: مَقبُرة وتقولُ كذلك: مقبَرة واختُلفَ في أولِ من عرف القبر فقيل الغراب لّما قَتَل قابيلُ هابيلَ، وقيل: إن قابيل كان يعلمُ الدفن ولكن ترك أخاه استخفافًا بهِ؛ فبعث الله الغرابَ ليبحث في الأرض، يعني: التراب على هابيل فقال عند ذلك: ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيد الله الغُراب له حتى واراه.

وفي روايةٍ أخرى عن أُبي بن كعب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كان آدمُ رجلًا أشعر -أي: كثير الشعر- طُوالًا -بضم الطاءِ أي: طويلًا- كأنه نخلةٌ سحوق -أي: طويلةٌ- فلما حضره الموت نزلت الملائكة بحنوطه وكفنه من الجنة والحنوط هي الأخلاط التي تُعَدُ أن توضع في كفن الميت لكي تجفف بلله وهي من أشياء رائحتُها طيبة، فلما مات # -أي: آدم- غسلُوه بالماءِ والسدر ثلاثًا، وجعلوا في الثالثةِ كافورًا وكفنوهُ في وترٍ من الثياب، وحفروا له لحدًا وصلوا عليه، ثم دخلوا قبرهُ فوضعوهُ في قبرِه، ووضعوا علي اللبن، ثم خرجوا من القبر واللبن هو الطوب الذي يُصنع من الطينِ دون أن يحرق، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا: يا بني آدم، هذه سنتكم من بعدهِ فكذالكم، فافعلوا فبقى ذلك سنةً لازمةً في بني آدمَ)).

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١] أي: جعل له قبرًا يوارى فيه إكرامًا له ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطيرُ والعوافي. القبرُ أولُ منازلُ الآخرة روى ابن ماجه عن هانئ بن عثمان، قال: "كان عثِمان > إذا وقف على قبرٍ بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكرُ الجنةُ والنارُ، ولا تبكي، وتبكي من هذا! قال: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن القبرَ أولُ منازلُ الآخرة فإن نجا منه أحدٌ فما بعدهُ أيسر منه، وإن لم ينجو منه أحدٌ، فما بعدهٌ أشدُّ منه)).

وقد وصف القبر بعضُ العلماء؛ فقال: هو تلك الحفرةُ الضيقة التي لا أنيس فيها، ولا جليس، ولا صديقَ، اللهم إلا عملٌ صالحٌ قدمهُ الميت قبلَ وفاتِهِ فهو أنيسهُ في قبره، ومزيلُ وحشتهِ في غمسِه، والقبرُ موطن العظماء والفقراء، والحكماء والسفهاء، ومنزلُ الصالحين السعداء، والطالحين الأشقياء، والقبرُ إما روضةٌ من رياض الجنةِ، أو حفرةٌ من حفر النار، وإما دارُ كرامةٍ وسعادة، أو دارُ إهانةٍ وشقاوة.

٢. ضمةُ القبر:

عندما يوضعُ الميتِ في القبرِ؛ فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد، كبيرًا كان أو صغيرًا؛ صالحًا أو طالحًا، فقد جاء في الأحاديث أنّ القبرَ ضم سعد بن معاذ، والذي تحرك له عند موتِهِ عرشُ الرحمن، وفتِحت له أبواب السماء، وشهده سبعونِ ألفً من الملائكة؛ ففي (سنن النسائي) عن ابن عمر } قال: قال رسول الله ﷺ: ((هذا الذي تحرَّكَ لَهُ العرشُ، وفتِحت له أبواب السماء وشهده سبعونِ ألفًا من الملائكة، لقد ضُم ضمَّةً، ثم فُرِّجَ عنه)).

وقد وردت أحاديثُ كثيرة في هذا المعنى، ومما يدلُ على أن ضمة القبرِ لازمةً لكل إنسانٍ؛ أنّ الصبيانَ لا ينجون منها، قال مُجاهد أشدُ حديثًا سمعناه عن النبي ﷺ قوله: ((ما عُفي أحدٌ من ضمة القبرِ إلا فاطمةُ بنت أسد فقيل: يا رسول الله، ولا القاسم ابنك؟ قال: ولا إبراهيم، وكان أصغرهما)).

وضمةُ القبرِ تكون للمسلمِ وللكافر، ولكنَّ الفرقَ بينهما دوامُها للكافرِ، وحصولِها للمؤمنِ في أول نزولهِ إلى قبره، ثم يعودُ الانفساحُ له فيه، والمراد بضغطةِ القبر التقاء جانبيهِ على جسد الميت. وقد نقل العلامة السفاريني قال: قال محمد التميمي: ضمةُ القبرِ إنما أصلُها أن الأرضَ أمُهم، ومنها خلقوا؛ فغابوا عنا الغيبةَ الطويلة، فلما ردوا إليها، وهم أولادُها ضمتهم ضمة الوالدةِ إذا غاب عنها ولدها، ثم قدم، فمن كان مطيعًا ضمتهُ برأفة، ومن كان عاصيًا ضمته بعنف؛ سخطًا لربها عليه.

وقد أخرج البيهقي وغيره عن عائشة < أنها قالت: يا رسول الله، إنك منذ حدثتني بصوتِ منكرٍ ونكير، وضغطة القبر ليس ينفعني شيء قال: ((يا عائشة، إن أصوات منكرٍ ونكيرٍ في سماع المؤمنينَ كالإثمدِ في العين، وإن ضغطة القبر على

المؤمنُ كالأم الشفيقة يشكو إليها ابنها الصداعَ ؛ فتغمزُ رأسهُ غمزًا رفيقًا ، ولكن يا عائشة ويلٌ لشاكّينَ في الله كيف يضغطُون في قبورهم كضغطة الصخرةِ على البيضة)).

٣. فتنةُ القبر:

والفتنةُ تطلقُ على عدةِ معانٍ ؛ فهي تطلقُ على الاختبار والامتحان كما في قولهِ تعالى : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طـه:١٠٣] وتطلقُ على الشرك كما في قوله تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وتطلقُ على الإحراق والتعذيبِ بالنارِ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠].

وفتنةُ القبرِ: هي سُؤال الملكينِ الميت بعد دفنِه عن ربه وعن دينه ، وعن نبيه وصفةُ فتنةُ القبر أنه إذا دُفنَ الميتُ في قبرهِ تُعادُ له الروح ، وإعادة الروح إليه غير الإعادة المألوفة في الدنيا ؛ فيحيا بها حياةً غير هذه الحياة ليسأل ، ويُمتحن في قبره ؛ فهذا حقٌّ ونفيهُ خطأٌ ، ولقد دل عليه النصُ الصحيحُ الصريح ، وهو قولهُ ﷺ في حديث البراء بن عازب وغيرهِ ، وهو حديثٌ مطولٌ بَيَّنَ فيهِ ﷺ كيفيةِ إخراجِ الملائكة الروح من البدن ، وصعودِهِ إلى السماء ، ، وردِّها إليه للسؤال حيث قال ﷺ : ((فتعاد روحِه إلى جسده فيأتيهِ ملكان فيجلسانهِ فيقولان له : من رَبُك...)) إلى آخر الحديث. ((فيقول المؤمنُ ربي الله وديني الإسلام ونبي محمدٌ ﷺ ويضل الله الظالمين ، فيقول الكافر: ها ها لا أدري ويقول المنافق ، أو المرتاب : لا أدري سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلته)).

والدليلُ من الحديث : عَن أنس > أن رسول الله ﷺ قال : ((إنّ العبدَ إذا وضع في قبرهِ ، وتولى عنه أصحابه إنه ليسمعُ قرع نعالهم إذا انصرفوا ، أتاه

ملكان فيقعدانهِ، فيقولان له: ما كنتُ تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله؟ وأما الكافر أو المنافق)) وفي روايةٍ: ((وأما الكافرُ والمنافقُ فيقول: لا أدري، كنت أقولُ ما يقولُ الناسُ فيه، فيقال: لا دريتَ ولا تليت)).

٤. نعيمُ القبر:

وأما نعيمُ القبرِ فقد دل عليه قولهِ تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((إن المؤمن في قبرهِ ل في روضةً خضراء، ويرحب له قبره سبعينَ ذراعًا وينور له فيهِ كالقمرُ ليلة البدر)) وقد ذكر ابن رجب رواية عن عبادة ابن الصامت: "إذا حضرت الوفاة، يعني: المؤمن الحافظُ للقرآن؛ جاء القرآنُ فوقف عند رأسهِ، وهم يغسلونهُ، فإذا فرغ منه جاء حتى صار بين صدره، وكفنهِ فإذا وضع في قبرهِ، وجاء منكرٌ ونكير خرجَ حتى صار بينه وبينهما، ثم يخرجانِ عنه، فيصعد القرآن إلى ربهِ؛ فيسأله فراشًا ودِثارًا، قال: فيأمر له بفراشٍ ودِثارٍ وقنديلٍ من الجنةِ، وياسمينٍ من الجنة، قال: فتدخلُ عليهِ الملائكةُ فيحملونهُ، ويفرشون له ذلك الفراش، ويضعونَ الدِثار تحتَ رجليهِ والياسمينَ عندَ صدره.

٥. صفةُ نعيم القبر:

ذكر رسول الله ﷺ في حديث البراء بن عازب: ((أن الملائكة تسأل العبدَ المؤمن في قبره؛ فيُحسن الإجابة فعند ذاك ينادي مناد في السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من

روحها وطيبها، ويُفسح له في قبرهِ مد بصره، قال: ويأتهِ -وفي روايةٍ: يمثُلُ له- رجلٌ حسن الوجهِ حسن الثيابِ، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُك. أبشر برضوانٍ من الله، وجناتٍ فيها نعيمٌ مقيم هذا يومك الذي توعد فيقول له: وأنت بشرك الله بخيرٍ من أنت؟ فوجهك الوجهُ الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فوا الله ما علمتُك إلا كنت سريعًا في طاعة الله بطيئًا في معصية الله، فجزاك اللهُ خيرًا، ثم يفتحُ له بابٌ من الجنة، وبابٌ من النار فيقال: هذا منزلكَ لو عصيتَ الله، أبدلك الله به هذا؛ فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة، كي ما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسكن)) وفي حديثٍ عن أنسٍ > : ((أن العبدَ المؤمنَ إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبرهِ، يقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله بهِ من الجنة)).

قال النبي ﷺ: ((فيراهما جميعًا)) قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، وفي: (سنن الترمذي) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيبَ الإجابةَ السديدةَ: ((قد كنا نعلم أنك تقولُ ذلك، ثم يُفسح له في قبرهِ سبعونَ ذراعًا في سبعين، ثم يُنور له فيهِ، ثم يقال له: نَم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأُخبرهم، فيقولان: نَمْ كنومَةِ العروس الذي لا يوقظهُ إلا أحبُّ أهلِهِ إليهِ حتى يبعثهُ الله من مضجعهِ ذلك)).

عذاب القبر

أعاذنا الله جميعًا منه، ومن الأمور التي يجب الإيمان بها وأنها حقٌ عذاب القبر؛ فقد ذكر الله عذاب القبرِ في القرآن الكريم في عدة أماكن، قال الحافظ ابن رجب في قولهِ تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥].

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآيات، قال: ((إذا كان عند الموت قيل له: هذا؛ فإن كان من أصحاب اليمين أحب لقاء الله؛ فأحب الله لقاءه، وإن كان من أصحاب الشمال كرهَ لقاء الله، وكرهَ الله لقاءه))، واعلم: أن عذاب القبر وعذاب البرزخ حق؛ فكل من مات، وهو مستحقٌ للعذابِ، ناله نصيبه منه قبرَ أو لم يقبر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادًا ،ونسف في الهواء، أو صُلبَ، أو غَرِقَ في البحر، وصل إلى روحهِ وبدنهِ من العذابِ ما يصل ُإلى المقبور.

وما ورد من إجلاسهِ واختلافِ أضلاعهِ ونحو ذلك، فيجب أن يُفهَم عن الرسولِ ﷺ مُراده من غيرِ غُلوٍ ولا تقصير، وقد دلَّ القرآنُ الكريمُ على عذاب القبر في مواضعَ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وفي (صحيح مسلم) عن عائشة < قالت: ((دخلت عليَّ عجوزان من عُجزِ يهود المدينة، فقالتا: إنّ أهلَ القُبور يعذبون في قبورِهم قالت: فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهُما فخرجتا، ودخل رسولِ الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزينِ من عُجزِ يهود المدينة دخَلَتَا عليَّ فزعَمَتَا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: صدقتا؛ فإنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم، قالت: فما رأيته بعده في صلاة إلا يتعوذْ من عذاب القبر)).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قولهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] قال: ((عذابُ القبرِ)) وروي شُريْك، عن ابن إسحاق، عن البراء في قولهِ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]. وكذا قال قُتَادة، والربيعُ بن أنس في قولهِ ﷻ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١].

أحدُهما في الدنيا والأخرى هي عذاب القبر، وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ في عذاب القبر، والتعوْذ منه، وفي (الصحيحين) عن مسروق، عن عائشة: ((أنها سألت النبي ﷺ عن عذاب القبر، قال: نعم عذاب القبرُ حقٌّ، قالت عائشة: فما رأيتُ رسول الله ﷺ صلى صلاةً إلا تعوْذ من عذاب القبر)).

روي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ((إني رأيتكم، تُفْتنونَ في القبورِ كفتنةِ الدجال، قالت عائشة: فكنت أسمع رسول الله ﷺ يتعوْذ من عذاب القبر)).

صفةُ عذاب القبر:

وذكر في حديثٍ عن أنسٍ: أن الكافر والمنافقَ بعد أن يجيبَ في قبرِهِ تلك الإجابةِ الكاذبة، يقال له: لا دريتَ ولا تليت، ثم يضربُ بمطرقة من حديدٍ ضربتٍ بين أذنيهِ، فيصيحُ صيحةً يسمعُها من يليهِ إلا الثقلين خرجه البخاري ومسلم، ولفظُ الحديثِ للبخاري ومسلم: ((إن العبدَ إذا وضع في قبرِهِ)) ثم ذكر نحوًا مما تقدم إلى قولهِ: "وذكر لنا أنه يفسحُ فيهِ سبعينَ ذراعًا ويملأ عليهِ خضرًا إلى يوم تبعثون".

وفي روايةٍ لأبي داود: ((أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب ينطلق بهِ إلى بيتٍ كان له في النارِ، فيقول له: هذا كان لك، ولكنَّ الله عصمك فأبدلك بيتًا في الجنةِ، فيراه فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشرَّ أهلي فيقال: لهُ اسكن، وإنهما يقولان للمنافقِ قد كنا نعلم أنك تقولُ ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئمُ عليه؛ فتختلف أضلاعُه، فلا يزال معذبًا حتى يبعثهُ الله من مضجعهِ ذلك)).

قال القرطبي: قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن عذابَ القبرِ ليس مختصًّا بالكافرين، ولا موقوفًا على المنافقين، بل يشاركهُم فيهِ طائفةٌ من المؤمنين، وكلٌّ على حالهِ من عمله، وما استوجبهُ من خطيئتِهِ وزلله.

الإيمان بالبرزخ وما يقع فيه (٢)

عناصر الدرس

أسباب عذاب القبر

الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه.

والمفصل: فإن النصوص ذكرت منه الكثير، وسنشير إلى بعضٍ من الأحاديث، فقد ورد: أنّ عَدم الاستتار من البول والنميمة يؤدي إلى العذاب في القبر؛ روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس } قال: ((مَرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، أما أحدهما: فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستتر من بولِهِ، ثم أخذ عودًا رطبًا، فكسره باثنتين، ثم غرس كل واحد منهما على قبره، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)).

ثم روى النسائي عن عائشة } قالت: ((دخلت علي امرأة من اليهود فقالت: إن عذاب القبر من البول، فقلتُ: كذبتِ، فقالت: بلى إنا لنقرض منه الجلد والثوب؛ فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وقد ارتفعت أصواتنا فقال: ما هذا؟ فأخبرته بما قلت، فقال: صدقت، قالت: فما صلى بعدُ يومئذ إلا قال دبر كل صلاة: ربَّ جبرائيل وميكائيل، وإسرافيل أعذني من حر النار، وعذاب القبر)).

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب، ومن الدين الذي شرعه الله لهم، ولذلك لما نهاهم عن فعل ذلك

أحدُهُم عُذِّبَ في قبره؛ بسبب نهيه، ففي حديث عبد الرحمن بن حسنة أن رسول الله ﷺ قال: ((ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل؟ كانوا إذا أصابهم البولُ قطعوا ما أصابهم البول منهم؛ فنهاهم عن ذلك فعُذِّبَ في قبره)).

فهذا أول ما يعذب عليه في قبره، وهو عدم الاستتار من البول، والنميمة

ومما يُعذب به في القبر الغُلُول، وغُلَّ من المغنم يَغُلُّ بالضم غُلُولًا، والغلول من المغنم خاصةً، وهو من الذنوب إلي يُعَذَّبُ صاحبُهَا في القبر، وقد صح في ذلك أكثر من حديث؛ فعن أبي هريرة قال: ((أهدى رجلٌ لرسولِ الله ﷺ غلامًا يقال له: "مِدْعَم" فبينما مدعم يحط رحلًا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهمٌ عائرٌ -أي: لا يُدْرى من رماه- فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال الرسول ﷺ: كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا، فلما سمع ذلك الناسُ جاء رجل بشراكٍ أو شراكين إلى النبي ﷺ فقال: شراك من نار، أو شراكين من نار)) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو قال: ((كان على ثِقْلِ النبي ﷺ رجلٌ يقال له "كركرة" فمات، فقال رسول الله ﷺ: هو من نار، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءةً قد غَلَّهَا)).

ومن أسباب عذاب القبر: الكذب، وهجر القرآن، والزنا، والربا: فقد ورد عن رسول الله ﷺ: أرى الله رسوله ﷺ أنواعًا مما يعذب به بعض العصاة، ففي (صحيح البخاري) عن سمرة بن جندب قال: ((كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة، أقبل علينا بوجهه، فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا، قال: فإن رأى أحد قصها فيقول: ما شاء الله، فسألنا يومًا فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا، قال: لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كالوب من حديد)).

قال بعض أصحابنا عن موسى: ((كالوب من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجعٍ على قفاه، ورجلٍ قائمٍ على رأسه، بفهر أو صخرة فيشدق به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه؛ فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلى ثقبٍ مثل التنور أعلاه ضيق، وأسفله واسع يتوقد تحته نارًا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائمٌ على وسطِ النهرِ، رجل بين يديه حجارة))

قال يزيد، ووهب بن جرير، عن جرير بن حازم: ((وعلى شط النهر رجل فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجرٍ في فِيهِ فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج؛ رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجلٌ قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي الشجرة، وأدخلاني دارًا لم أرَ قط أحسن منها فيها رجال شيوخ، وشباب، ونساء، وصبيان، ثم أخرجاني منها، وصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسنُ، وأفضل فيها شيوخ وشباب، قلتُ: طوفتماني الليلةَ، فأخبرَانِي عمَّا رأيت، قالا: نعم، أما الذي رأيته يشق شدقُهُ، فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيتَ إلى يوم القيامة، والذي رأيته يشدق رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار يُفْعَلُ به إلى يوم القيامة، والذي رأيتَهُ في الثقبِ فهم الزناة،

والذي رأيتَهُ في النهر آكلُ الربا، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم # والصبيان حوله أولاد الناس، والذي يوقد النارَ مالكُ خادمُ النارِ، والدار الأولى التي دخلتَ دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار: فدارُ الشهداءِ وأنا جبريل، وهذا ميكائيل فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك، قلتُ: دعاني أدخل منزلي، قالا: إنه بقيا لك عمر لم تستكملْهُ، فلو استكملته أتيتَ منزلك)).

ومن أسباب عذاب القبر: حبس المدين في قبره بدينه: ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين؛ فعن سعد بن الأطول > : أن أخاه مات؛ وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالًا، قال: فأردت أن أنفقها على عيالِهِ قال: فقال لي نبي الله ﷺ: ((إنّ أخاك محبوسٌ بدينه فاذهب، فاقضِ عنه، فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة، وليس لها بينة، قال: أعطها، فإنها محقة)) وفي رواية: ((صادقة)).

فقد أخبر الرسول ﷺ: أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه، ويمكن أن يفسر هذا الحبس الحديث الآخر، حيث قال الرسول ﷺ: "إنه مأسور بدينه عن الجنة" ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب: ((أن النبي ﷺ صلى على جنازة)) وفي رواية: ((صلى الصبح فلما انصرف قال: أهاهنا من آل فلان أحد؟ فسكت القوم، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا، فقال ذلك مرارًا ثلاثًا لا يجيبه أحد، فقال رجل: هو ذا، قال: فقام رجلٌ يجر إزاره من مؤخر الناس، فقال له النبي ﷺ: ما منعك في المرتين الأولين أن تكون أجبتني، أما إني لم أنوه باسمك إلا لخير، إن فلانًا لرجل منهم مأسورٌ بدينه عن الجنة؛ فإن شئتم فافدوه، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله، فلو رأيت أهله، ومن يتحرون أمره، فقد قاموا فقضوا عنه حتى ما أحد يطلبه بشيء)).

ومن أسباب عذاب القبر: عذاب الميت ببكاء الحي: فعندما طعن عمر بن الخطاب > دخل عليه صهيب يبكي، يقول: وَا أَخَاهُ وَا صَاحِبَاهُ فقال عمر > : يا صهيب، أتبكي علي، وقد قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))؟.

وهنا ينبغي أن ينبه أنه ليس كل ميتٍ يُنَاحَ عليه يعذب بالنياح عليه، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة، والأرواح والصور الخبيثة.

ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب، وقد يتخلَّفُ موجبه لموانع تدفع ذلك، إما بتوبةٍ مقبولةٍ، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بشفاعة شفيع مطاع، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته، وبين في خاتمة كلامه أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نيح عليه يكفر الله به عنه سيئاته.

أسباب النجاة من عذاب القبر

ومما يجب أن يُعلم أن يجب على المؤمن أن يكون مستعدًّا للموت، مشمرًا له حتى إذا فاجئَهُ الموت لم يعض إصبع النّدم، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة، وهو أن يجلس عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره، وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحة بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على ألا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة؛ فإن مات من ليلتِهِ مات على توبة، وإن استيقظ مستقبلًا للعمل، مسرورًا بتأخير الأجل، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة، ولا سيما إذا أعقب ذلك بذكر الله،

واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك -ولا قوة إلا بالله.

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر: قراءة سورة "تبارك"، والذي يقرأ "تبارك" -الملك- فعن ابن عباس } قال ((ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءة على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خبائي على قبر، أنا لا أحسب انه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: هي المانعة، هي المنجية تنجيهِ من عذاب القبر)).

ونقل الإمام السفاريني في كتابه، قال: قال الإمام المحقق ابن القيم في كتابه (الروح) عن ابن عباس } : أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال الرجل: بلى، قال: اقرأ تبارك الذي بيده الملك احفظها، وعلمها أهلك، وولدك، وصبيان بيتِك، وجيرانك؛ فإنها المنجيةُ، والمجادلةُ تجادل، أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: ((لوددت إنها في قلبِ كُلِّ إنسانٍ من أُمَّتِي)) قال أبو عمر ابن عبد البر، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أن سورة ثلاثين آية شفعت في صاحبها حتى غفر له تبارك الذي بيده الملك)).

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر: قضاء الحقوق، والإكثار من الأعمال الصالحة؛ فإن الإيمان والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والجهاد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وذكر الله ﷻ وغيرها من الأعمال الصالحة تحفظ العبد المؤمن، وبها يجعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا. وقد حدثنا الرسول ﷺ: أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره.

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر: الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر وعن أنس: ((أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبُخل، والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)). وعن عائشة: ((أن الرسول ﷺ كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنةِ القبرِ، وعذابِ القبرِ)).

ومن الأسباب المنجية من عذاب القبر: الشهادة في سبيل الله: فقد روى المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: ((للشهيد عند الله ستُّ خصال، يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده في الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه)). الذي مات مرابطًا في سبيل الله فقد روى فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: ((كل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله؛ فإنه ينمى له عمله يوم القيامة ويأمن فتنة القبر)).

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر: الذي يموت يوم الجمعة: ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: ((ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر)). وكذلك الذي يموت بداء البطن: فقد ثبت في حديث يرويه عبد الله بن يسار، قال: "كنت جالسًا وسليمان بن سرد، وخالد بن عرفطة، فذكروا: أن رجلًا توفي مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته، فقال: أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: ((من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره فقال الآخر: بلى)) وفي رواية: ((صدقت)).

العذاب في البرزخ على الروح والجسد معًا:

فقد ذهب أهل السنة والجماعة على أن العذاب والنعيم في البرزخ يقع على الروح والبدن جميعًا، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: العذابُ والنعيمُ على

النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس، وتعذب منفردة عن البدن، وتُعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم، والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما يكون للروح منفردة عن البدن.

وقد ذهب فريق آخر يرى غير رأي أهل السنة من أهل الكلام من بعض المعتزلة، والخوارج، والجهمية، والقرآنيون، وهم طائفة مبتدعة ظهرت بالهند تأخذ بالقرآن الكريم دون السنة بزعمهم، وهم ينكرون الشفاعة وأحوال البرزخ، وهؤلاء هم القرآنيون. ويرى غير أهل السنة من أهل الكلام من بعض المعتزلة والخوارج والجهمية والقرآنيون، والروافض، وهؤلاء جميعًا ينكرون النعيم، والعذاب في البرزخ مطلقًا، والسر في ذلك عندهم: أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد فالروح عندهم هي الحياة، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت فلا نعيم، ولا عذاب حتى يبعث الله العباد، وهؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان، أي: إعادة الأبدان، وهذا قول باطل لا شك في بطلانه.

وقد نقل غير واحد من أهل السنة والإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة. وقد ذهب فريق آخر يرى: أن النعيم والعذاب على الروح فقط دون الجسد، وأن البدن لا ينعم، ولا يعذب، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة، وكذلك قال به الفلاسفة المنكرون للميعاد، وكثير من المعتزلة، وغيرهم وأهل الكلام، وطائفة من أهل الحديث، وهو اختيار ابن حزم الظاهري في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل).

وقد حقق هذا الكتاب زميل كريم، وقد صحح العنوان المشهور بالفصل بقوله: "الفصل في الملل والأهواء والنحل وهؤلاء"، وإن اثبتوا عذابًا ونعيمًا للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون الميعاد ، وقد ذهب فريق آخر إلى القول بأن الذي يُنعم ويُعذب في القبر البدن وحده، وقد قال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني.

الإيمان بالبرزخ وما يقع فيه (٣)

عناصر الدرس

في الاختلاف في مستقر الأرواح في البرزخ

قد اختُلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة؛ فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار، وقيل: إن أرواح المؤمنين بفِناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها، وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ، ولم يزيدوا على ذلك، وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرغوت بئر بحضر موت، وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس، وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برغوت، وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله، قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها، وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطيرٍ خضر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يوم تسلم عليه، وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إن النفس عرَض من أعراض البدن كحياته وإدراكه، وقولهم مخالف للكتاب والسنة، وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يُشاكل تلك الروح، وهذا قول التناسخية منكري الميعاد، وهو قولٌ خارج عن أهل الإسلام كلهم، وأن تلك الأرواح في عالم البرزخ تتفاوت درجاتها ومنازلها؛ فمنها: أرواحٌ في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي

أرواح الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- وهم كذلك متفاوتون في منازلهم؛ فأرواحُ الأنبياء تكون في خيرِ المنازل في أعلى عليين في الرفيق الأعلى.

وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول: ((اللهم الرفيق الأعلى)) وردَ هذا الحديث في (صحيح البخاري).

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه، كما في (المسند) عن محمد بن عبد الله بن جحش: ((أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى قال: إلا الدين سارني به جبريل آنفًا)).

ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنة؛ كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: ((رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة)).

ومنهم: من يكون محبوسًا في قبره، ومنهم: من يكون محبوسًا في الأرض، ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقى بالحجارة؛ كل ذلك تشهد له السنة.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال: إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: ((أرواحهم في جوف أطيار خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل)). رواه مسلم في صحيحه.

وهذه أرواح بعض الشهداء لا كل الشهداء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] فهي أن الله تعالى

جعل أرواحهم في أجواف طير خضر، كما في حديث عبد الله بن عباس } أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما أصيب إخوانكم -يعني: يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش)) الحديث رواه أحمد، وقد فسّر هذا الحديث بأنهم لما بذلوا أبدانهم لله ﷻ حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم الله منها في البرزخ أبدانًا خيرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها؛ ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير.

وتأمل لفظ الحديثين؛ ففي (الموطأ): أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: ((إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)) فقوله: ((نسمة المؤمن)) تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: ((هي في جوف طير خضر)) ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير.

الفرق بين أرواح المؤمنين الصادقين وأرواح الشهداء: أما أرواح المؤمنين الصالحين تكون -كما قلنا قبل ذلك- طيرًا تعلق في شجر الجنة، ففي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة)) والفرق بين أرواح المؤمنين أرواح الشهداء أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة، ولا ينتقل في أرجائها، وكون أرواح المؤمنين في أجواف طير يعلق شجر الجنة لا يشكل عليه الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ وفيه: ((أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن وترقى به إلى السماء،

فتقول الملائكة: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرح أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه؛ فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية)) فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن مستقر الأرواح في البرزخ، فلا بد لنا أن نتكلم عن أرواح العصاة؛ فلذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شقه حتى يبلغ قفاه، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدق رأسه بصخرة، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور ضيقٌ أعلاه وأسفله واسع توقد النار من تحته، والمرابي يسبح في بحر من دم وعلى الشط من يلقون حجارة، وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يتنزه من بوله، والذي يمشي بالنميمة بين الناس، والذي غل من النميمة، ونحو ذلك.

ثم أذكر هنا روح الكفار في حديث أبي هريرة عند النسائي، بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة، ذكر حال الكافر وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تقبض روحه تخرج منه كأنتن ريح حتى يأتون به باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار.

ذكر الأمور التي ينتفع بها الميت بعد موته

روى الدارقطني: ((أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: كان لي أبوان أبرهما حال حياتهما؛ فكيف لي ببرهما بعد موتهما؟ فقال النبي ﷺ: إن من البر بعد الموت أن تصلي لهما مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك)).

وسوف نتناول هذا الحديث بعد ذكره برأي العلماء فيما يصل من الأعمال للميت وتقسيمهم لهذه الأعمال:

فقد ذهب الحنفية والحنابلة ومن وافقهم من المتأخرين من علماء المالكية والشافعية: يقولون بوصول ثواب العمل من الغير إلى الميت مطلقًا؛ سواءٌ أكان العمل عبادة بدنية محضة -أي خالصة- كالصلاة والصوم والاعتكاف وقراءة القرآن والذكر، أم مالية محضة كالزكاة والصدقة، أو مركبة منهما -أي: المشتركة من العمل والمال- كالحج.

الرأي الثاني: عدم وصول الثواب للميت مطلقًا وهم المعتزلة:

القول الثالث: فصّل فيما يصل إلى الميت من أعمال، وفيما لم يصل إليه من أعمال، وبناءً على ذلك فصّل هؤلاء في العبادة فقالوا: إن كانت بدنية محضة فلا يصل ثوابها للميت، وإن كانت ماليةً محضة أو مشتركة -بمعنى أنها مركبة منهما- وصل ثوابها للميت.

وهنا أذكر للاستدلال رأي ابن تيمية في هذه المسألة؛ فقد سئل الإمام ابن تيمية في مجموع فتاويه عن قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] وقوله ﷺ: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) فهل يقتضي ذلك إذا مات ألا يصل إليه شيء من أفعال البر؟

وقد أجاب -رحمه الله-: ليس في الآية ولا الحديث أن الميت لا ينتفع بدعاء الخلق له، وبما يُعمل عنه من البر، بل أئمة الإسلام متفقون على انتفاع الميت بذلك، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، فمن خالف ذلك كان من أهل البدع، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ

ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ [غافر: ٧- ٩].

فقد أخبر سبحانه أن الملائكة يدعون للمؤمنين بالمغفرة ووقاية العذاب ودخول الجنة، ودعاء الملائكة ليس عملًا للعبد، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد: ١٩] وقال الخليل # : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال نوح # : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨] فقد ذكر استغفار الرسل للمؤمنين أمرًا بذلك، وإخبارًا عنهم بذلك.

ومن السنن المتواترة التي من جحدها كفر صلاة المسلمين على الميت ودعاؤهم له في الصلاة، وكذلك شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة؛ فإن السنن فيها متواترة، بل لم ينكر شفاعته لأهل الكبائر إلا أهل البدع، بل قد ثبت أنه يشفع لأهل الكبائر وشفاعته ﷺ دعاؤه وسؤاله الله -تبارك وتعالى. فهذا وأمثاله من القرآن والسنن المتواترة. وجاحد مثل ذلك كافر بعد قيام الحجة عليه.

والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة، مثل ما في الصحاح عن ابن عباس } : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: نعم، قال: إن لي مَخرفًا -أي: بستانًا- أشهدكم أني تصدقت به عنها)).

وفي الصحيحين عن عائشة < : ((أن رجلًا قال للنبي: إن أمي افتلتت نفسها ولم توصِ، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم)).

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة > : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أبي مات ولم يوصِ أينفعه إن تصدقت عنه؟ قال: نعم)).

والأئمة اتفقوا على أن الصدقة تصل إلى الميت، وكذلك العبادات المالية كالعتق، وإنما تنازعوا في العبادات البدنية كالصلاة والصيام والقراءة، ومع هذا ففي الصحيحين عن عائشة < عن النبي ﷺ قال: ((من مات وعليه صيام صام عنه وليه)).

وفي الصحيحين عن ابن عباس < : ((أن امرأة قالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صيام نذر، قال: أرأيت إن كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدى ذلك عنها؟ قالت: نعم، قال: فصومي عن أمك)).

وفى الصحيح عنه: ((أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أختي ماتت وعليها صوم شهرين متتابعين، قال: أرأيت لو كان على أختك دين أكنت تقضينه؟ قالت: نعم، قال: فحق الله أحق)).

وفي (صحيح مسلم) عن عبد الله بن بريد بن الحصين عن أبيه: ((أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفيجزي عنها أن أصوم عنها؟ قال: نعم)).

فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في أنه يصام عن الميت ما نذر وأنه شُبه ذلك بقضاء الدين.

والأئمة تنازعوا في ذلك، ولم يخالف هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة من بلغته، وإنما خالفها من لم تبلغه، وقد تقدم حديث عمرو بأنهم إذا صاموا عن المسلم نفعه، وأما الحج فيجزئ عند عامتهم ليس فيه إلا اختلاف شاذ.

وفي الصحيحين عن ابن عباس } : ((أن امرأة من جهينة، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ فقال: حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته عنها؟ اقضوا الله؛ فالله أحق بالوفاء)).

وفي رواية البخاري: "إن أختي نذرت أن تحج"، وفي (صحيح مسلم) عن بريدة: ((أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت ولم تحج أفيجزئ -أو يقضي- أن أحج عنها؟ قال: نعم)).

ففي هذه الأحاديث الصحيحة أنه أمر بحج الفرد عن الميت وبحج النذر.

وهكذا، فإن الصدقة عن الميت فإنه ينتفع بها باتفاق المسلمين، وقد ورد في ذلك عن النبي ﷺ الأحاديث الصحيحة، وأما الصيام عنه وصلاة التطوع عنه وقراءة القرآن عنه، فهذا فيه قولان للعلماء؛ أحدهما ينتفع به وهو مذهب أحمد وأبي حنيفة وغيرهما وبعض أصحاب الشافعي وغيرهم، والقول الثاني: لا تصل إليه وهو المشهور في مذهب مالك والشافعي، وهذا هو ما قاله ابن تيمية -رحمه الله.

وأريد أن أختم هذا الفصل وهو الإيمان بالبرزخ بكلمتين؛ وهو أن حياة البرزخ ضرورة شرعية، وذلك لأن الإخبار عن هذه الحياة جاءنا عن طريق الشرع الحنيف بواسطة القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا الشرع الحنيف قائم على القسط والعدل، ولذلك يخوف الله سبحانه وتعالى عباده ليلفت أنظارهم إلى الحقيقة الكبرى والغاية العظمى ومآلهم المحتوم، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، إنه من مقتضى العدل لا بد أن يكون هناك موقف يقفه هذا الإنسان ليحاسب على عمله، ويجازى على فعله بعد انتهاء حياته الدنيا، وينتقل إلى حياة أخرى التي هي بداية الحياة الأبدية؛ إنها حياة البرزخ لينعم أو ليعذب؛ فتتحقق العدالة الإلهية، وتطمئن النفس أن لهذا الكون إلهًا عادلًا لا يظلم مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

أثر اعتقاد حياة البرزخ على المسلم:

إن اعتقاد المسلم وإيمانه بحياة البرزخ له أكبر الأثر في سلوكه، وفي انضباط أفعاله ومعاملاته، وخوفه من أن يكون قبره وحياة البرزخ حفرة من حفر النار يجعله من الذين يقفون عند حدود الله تعالى، ولا يتجرأ على حرمات الله، ولا يقدم على معصية الله، ولا يقع في شيء يغضب الله تعالى من ظلم أو بطش أو غش أو شهادة زور أو أكل حقوق الناس وأموالهم بالباطل أو إفساد في الأرض أو غير ذلك؛ فيؤدي ذلك الاعتقاد بوجود حياة البرزخ إلى أن يستقيم كل فرد مسلم ومسلمة على شرع الله وعمل الصالحات وترك المنكرات؛ فيعم الخير ويسود الأمن والأمان على مستوى الأفراد، ويتعدى ذلك إلى الجماعات والدول والأمم، ويصلح الفرد وتصلح الأمم، وهذه ثمرة من ثمرات اعتقاد المسلم بوجود حياة البرزخ.

اليوم الآخر ومقدماته (١)

عناصر الدرس

الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الإيمان لا يتم الإيمان إلا به

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقد دللت الآية هنا بالنص على الإيمان باليوم الآخر، وقد ساق القرآن الكريم آيات كثيرة متنوعة من الأساليب البيانية؛ لكي يؤكد وقوع يوم القيامة، فمرة يُؤكد وقوعها بأن كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ [طه: ١٥] ومرة بإنْ واللام في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

وفي بعض المواضع ينفي الريب والشك عن وقوعها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩] وفي بعض الآيات، يقسم الحق سبحانه بنفسه على أنها -أي: الساعة- آتية واقعة، ففي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [النساء: ٨٧] فكل هذه أدلة على أن الساعة آتية لا ريب فيها.

وأما المعنى اللغوي للساعة: فالساعة لغة: من مادة "سوع" وكلمة الساعة تطلق في اللغة والعرف على عدة إطلاقات، كلها تَدور حول معنى الوقت، أو جزء الوقت، أو الحاضر من الوقت، قال القرطبي: والسّاعة كلمة يُعبر عنها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود.

وأما الساعة في العُرف: فهي تطلق على أي جزء من أربعة وعشرين جزءًا في يوم وليلة، واللذان هما أصل الأزمنة -أي: اليوم والليلة- وحقيقة الإطلاق فيها؛ أن الساعة بالألف واللام عبارة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وإن الساعة في الاصطلاح الشرعي هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسُمّيت

بذلك إما لقربها ؛ فإن كلَّ آت قريب ، أو بسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تأتي بغتة في ساعة ، أو لسعي الأرواح إلى الأجساد بسرعة في ذلك اليوم ، أو لغير ذلك.

وتطلق الساعة في الشرع على ثلاثة :

الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ؛ فمن مات قامت قيامته لدخوله في عالم الآخرة.

وتطلق على الساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد.

وتطلق على الساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم ؛ للحساب والجزاء.

وإذا أطلقت الساعة في القرآن الكريم ؛ فالمراد بها القيامة الكبرى ، لا الصغرى ولا الوسطى ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣] أي : عن القيامة. وقال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [القمر : ١] أي : اقتربت القيامة. هذا هو مفهوم الساعة من حيث المعنى اللغوي ، والمعنى الشرعي الاصطلاحي لها.

والساعة قريبة ؛ فقد أخبر ربُّ العِزّة في كتابه الكريم مُنذ أربعة عشر قرنًا أنه قد آن أوان وقوعها ؛ فقال عز من قائل : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء : ١ ، ٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على قرب نهاية هذا العالم ، والانتقال إلى الدار الآخرة ؛ لكي ينال فيها كل مخلوق جزاء ما عمل ، إن كان خيرًا فخير ، وإن كان شرًّا فشر.

ومن الأدلة الأخرى التي يستدل بها على قرب قيام الساعة: الآيات التي وردت في القرآن الكريم، وكذلك ما ورد من أحاديث نبوية، تُروى عن رسول الله ﷺ في هذا الأمر؛ فمن ذلك قوله ﷺ: ((بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين)) ويُشير بإصبعيه ﷺ فيمدهما وفي هذا ما رواه البخاري.

وفي رواية أخرى لمسلم؛ عن سهل، بلفظ: ((سمعت رسول الله ﷺ يُشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: بعثت أنا والساعة هكذا)).

وقد ورد عنه ﷺ فيما يدلُّ على قرب الساعة، ما رواه عبد الله بن عمر } في (صحيح البخاري) ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس)) وفي لفظ آخر: ((إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس)).

فالآيات والأحاديث تدلُّ على قرب قيام الساعة، والحديثُ يمثلُ الوجود الإنساني، من يوم أن خلق آدم، إلى وجود الأمة الإسلامية، بيوم بدأ من الفجر إلى العصر، ويكون الباقي من ذلك اليوم هو من وجود الأمة الإسلامية الذي مَثّل به الرسول ﷺ من وقت العصر إلى المغرب، وهو الجزء المتبقي من اليوم. وهذا الجزء هو قليل بالنسبة لما مضى من أوله؛ ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة، كما بين العصر والمغرب.

فكل النصوص صريحة واضحة في دلالتها على أنّ أُمّة الرّسول ﷺ أُمّة الإسلام، هي آخر الأمم وجودًا، وأنّ نِهَاية وجود هذه الأمة، يَتَحَقّق بقيام الساعة، وأنها آتية قريبة لا محالة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وإخفاء الساعة له حِكم عظيمة، وقد كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ وأثناء نزول الوحي؛ يسألون النبي عن كل ما خفي عليهم؛ رغبة في معرفته، خاصة أن الوحي ينزل بما هو خفي غير معلوم؛ فمما شغل فكر المسلم وقت الساعة، روى البُخاري عن أنس بن مالك > قال: ((بينما أنا والنبي ﷺ خارجان من المسجد، فلقينا رجل عند سدة المسجد؛ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال النبي ﷺ: وما أعدت لها؟ فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعدت لها كبير صيام، ولا صلاة، ولا صدقة؛ ولكني أحبُّ الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: أنت مع من أحببت)).

وفي رواية لمسلم: قال أنس > : ((فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت)) وقد سُئل الرّسول ﷺعن الساعة مرة أخرى، وفي هذه المرة كان السائل جبريلُ # متمثلًا في صورة بشر؛ فأجاب ﷺ: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) وإذا كان أعلى الملائكة منزلةً، وهو جبريل # وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تقوم الساعة؛ فحري بألا يعرف أحد سواهما وقت وقوعها.

وقد بيّن القرآن الكريم أن وقت قيام الساعة من خصائص علم الله؛ فلم يُطلع الله عليها أحدًا من خلقه؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٥]

وكل هذه الآيات والأحاديث واضحة الدلالة على أنّ معرفة وقت وقوعها لا يعرفه إلا رب العزة، وأنّها تأتي بغتة؛ فلا يعلمُ وقتها لا ملك ولا نبي، والساعة إحدى

مفاتح الغيب الخمسة، التي من مكنونات علم الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي هذا العرض من الأحاديث والآيات يعرف المسلم أن الله قد اخفي وقت قيام الساعة، والوقت الذي تحل فيه وتقوم فيه القيامة، وفي هذا الإخفاء أمورٌ عظيمة، وحكم عالية؛ تتعلق بصلاح النفس الإنسانية؛ فيُوقن المسلم بوقوعها، وأنها من الأمور الغيبية التي يجب عليه الإيمان بها؛ فيظل مستعدًّا لها بأداء عباداته على أحسن وجهٍ، مؤديًا ما يجبُ عليه اتجاه ربه، وما يجب عليه في معاملاته من بني جنسه، متحريًا العدل ومتجنبًا الظلم، مترقبًا لها خائفًا من ربه باستمرار، وهذه حكم عظيمة جعلها الله مطوية في إخفائها، أي: في إخفاء وقت قيام الساعة.

أقسام علامات الساعة

وإذا كانَ اللهُ قد أخفَى وقتَ وقوع السّاعة عن عباده؛ فإنه أعلمهم بأماراتٍ وعلامات تدل على قرب وقوعها، وقد سَمّى القرآن الكريم هذه العلامات والأمارات بأشراط الساعة، قال تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ ﴾ [محمد: ١٨].

والشَرَط -بفتحتين- العلامة، وأشراطها: علاماتها. وفي (فتح الباري) المُراد بـ"الأشراط" العلامات التي يَعْقُبها قيام الساعة، وقد ورَدتْ أحاديث كثيرة، عَدّد فيها الرسول ﷺ جملةً من أشراط الساعة؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة < أنّ رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان؛ تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يُبعثُ دَجّالون كذابون قريبٌ من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى

يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال؛ فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا إرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمُرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)).

وفي (صحيح البخاري) عن عوف بن مالك > قال: ((أتيتُ النبي ﷺ في غَزوة تبوكٍ وهو في قبة أدم فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة؛ ثم قال: فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال؛ حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر؛ فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية -أي: راية- تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا)).

وعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أشراط الساعة: الفحش والتفحش، وقطيعة الرحم، وتخوين الأمين، وائتمان الخائن)) وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أشراط الساعة: أن يَمُرّ الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين، وألا يُسلم الرّجل إلا على من يَعرف)) وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد)).

وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث، وفي أحاديث أُخرى، قَسّمها أهل العلم إلى قسمين: علامات صغرى، وعلاماتٌ كبرى، والعلامات الصغرى يُمكن تقسيمها إلى قسمين: قسمٌ وقع، وقسمٌ لم يقع بعد. والذي وقع قد يكون مضى وانقضى، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة، بل يبدو شيئًا فشيئًا، وقد يتكرر وقوعه وحصوله، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي.

وعليه ؛ فإن علامات الساعة تنحصر في أربع :

الأول : العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت.

الثاني : العلامات الصغرى التي وقعت ولا تزال مستمرة وقد يتكرر وقوعها.

الثالث : العلامات الصغرى التي لم تقع بعد.

الرابع : العلامات الكبرى.

ونستطيع أن نقول : إن أشراط الساعة من حيث ظهورها ؛ تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم ظهر وانقضى ، وقسم ظهر ولا زال يتتابع ويكثر ، وقسم لم يظهر إلى الآن.

فأما القسمان الأوليان : وهما : ما ظهر وانقضى ، وظهر ولا يزال يتتابع ويكثر ؛ فهما من أشراط الساعة الصغرى. وأما القسم الثالث ؛ وهو الذي لم يظهر إلى الآن ، فيشترك فيه الأشراط الكبرى ، وبعض الأشراط الصغرى ، وعلاماتُ الساعة الصغرى التي ذكرها العلماء كثيرة ؛ منها ما هو ثابت بالسنة في أحاديث ، منها الصحيح ومنها الضعيف ، وسأذكر بعض من هذه العلامات الثابتة بالأحاديث الصحيحة.

علامات الساعة التي وقعت

فمن أشراط علامات الصغرى التي ظهرت : بعثة النبي ﷺ :

فقد أخبر ﷺ أنّ بعثته دليل على قرب قيام الساعة ، عن أنسٍ > قال : قال رسول الله ﷺ : ((بُعثتُ أنا والساعة كهاتين ؛ قال : وضم السبابة والوسطى)).

وقد ذكر القرطبي أنّ أوّل علامَات الساعة ، هو بعثة النبي ﷺ لأنّه نَبي آخر الزمان ، وقد بُعثَ ، وليس بينه وبين القيامة نبي ؛ قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ

أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ومن علامات الساعة التي ظهرت: موت النبي ﷺ ففي الحديث الذي رواه البخاري، قال: قال رسول الله ﷺ: ((اعدد ستًّا بين يدي الساعة)) ثم ذكر منها قوله ﷺ: ((موتي)) أي: موت النبي ﷺ.

ثم من علامات الساعة: فتح بيت المقدس. وقد تم ذلك في عهد عمر بن الخطاب > سنة ست عشرة من الهجرة، كما ذهب إلى ذلك علماءُ التّاريخ؛ ثم منها: طَاعُون عَمْواس، وهي بلدة في فلسطين على طريق بيت المقدس.

قال ابن حجر: يُقال: إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس؛ في خلافة عمر بعد فتح بيت المقدس سنة ثمان عشرة للهجرة، وهذا هو المشهور عند الجمهور؛ وقد مات فيه خلقٌ كثير من الصحابة وغيرهم، بلغ خمسة وعشرون ألفًا من المسلمين، وممن مات من المشهورين من الصحابة، في هذه العلامة: أبو عبيدة عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة > .

ومن علاماتها: استفاضة المال، والاستغناء عن الصدقة؛ فقد رُوي عن أبي هريرة > أنّ رسولَ الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض...)) إلى آخر الحديث.

وفي هذا يتحقق كثير مما أخبرنا به الصادق ﷺ، وكثر المال في عهد الصحابة { وقد تحقق هذا الحديث، وتحققت هذه العلامة التي هي استفاضة المال، والاستغناء عن الصدقة؛ ذكر العلماء أن المال كثر في عهد الصحابة { بسبب ما وقع من الفتوح الكثيرة التي أفاض الله بها على الأمة الإسلامية، وفتح عليهم الكثير من البلاد، وفاض المال في عهد عمر ابن عبد العزيز > فكان الرجل يعرض المال للصدقة فلا يجد من يقبله.

وهذه العلامة قد تشترك في الاستمرار؛ فهي قد ظهرت في عهد الصحابة، وفي عهد الفتوحات الإسلامية، وكذلك قد تظهر في آخر الزمان؛ فقد روى أبو هريرة، عن رَسول الله ﷺ أنه قال: ((تقيء الأرض أفلاذ أكبادها، أمثال الأسطوان منهم: الذهب، والفضة. قال: فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع -أي: القاطع لرحمه- فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي؛ ثم يدَعونه أي: المال الذي ظهر على وجه الأرض؛ فلا يأخذون منه شيئًا)).

ومن علامات الساعة كذلك وأشراطها: ظهور الفتن؛ والفتن جمع فتنة؛ وهي: الابتلاءُ والامتحان والاختبار، ثم أُطلقت على كل مكروه، أو آيل إليه، أي: آيلٍ إلى المكروه، كالإثم والكُفر، والقتل. وغير ذلك من الأمور المكروهة.

عن أم سلمة > ، زوج النبي ﷺ قالت: ((استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا يقول: سبحان الله! ما أنزل من الخزائن، وماذا أنزل الله من الفتن! من يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- لكي يصلين؛ رُبّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة)). رواه الإمام البخاري.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الفتن، وقد حذر النبي ﷺ أمته وأمر بالتعوذ منها؛ فإنه سيصيبها بلاء وفتنٌ عظيمة في آخر هذه الأمة، وهذه الفتن سيكون ظهورها من المشرق، روي عن ابن عمر } أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: ((ألا إنّ الفتنة ها هنا، ألا إن الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان)). رواه الشيخان.

وقرن الشيطان معناه قوة الشيطان وأتباعه. وفي رواية أخرى لمسلم أنه قال: ((رأس الكفر من هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان)) يعني: من المشرق.

ومن علاماتها كذلك: ظهور مدعي النبوة؛ فمن العلامات التي ظهرت: خروج الكذابين الذين يدعون النبوة، وهم قريب من ثلاثين كذابًا، وقد خرج بعضهم في الزمن النبوي، وفي عهد الصحابة كذلك، ولا يزالون يظهرون في هذه الأزمنة، وحتى هذا الوقت. وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذّابون قريب من ثلاثين؛ كلهم يزعم أنه رسول الله)).

من علامات الساعة وأشراطها: انتشار الأمن؛ وهذا قد وقع في زمن الصحابة { وذلك حينما عَمّ الإسلامُ، وساد العدل البلاد التي فتحها المسلمون، وأنّ هذا الأمن، وهذا الانتشار للأمن سيكون كذلك في آخر الزمان، زمن المهدي، وزمن عيسى # حينما يعم العدل مكان الجور والظلم؛ وقد وردت أحديث تأيد ذلك، كحديث: ((لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخافُ إلا ضلال الطريق)).

اليوم الآخر ومقدماته (١)

عناصر الدرس

تابع علامات الساعة التي وقعت

ظهور نار الحجاز:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز؛ تضيء أعناق الإبل ببُصرى)) فما هي بصرى؟ بُصرى بضم الباء مدينة معروفة بالشام، ويقال لها: حُوران. ولقد ظهرت هذه النار في منتصف القرن السّابع الهجري في عام أربعٍ وخمسين وستمائة، وكانت نارٌ عظيمة أفاضَ العلماءُ ممن عاصر ظهورها في وصفها، والعلماء كذلك من بعدهم.

ومن علامات الساعة وأشراطها: قتال العجم، وهم غير العرب. ومن علاماتها ضياع الأمانة، والأمانة ضد الخيانة؛ وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وللعلماء عدة أقوال في معنى الأمانة ترجع إلى نوعين: الأمانة في التوحيد لله تعالى. والأمانة في العمل، ويَدْخُل فيه جميع أنواع الشريعة، فكلاهما أمانة عند العبد، وبهذا المعنى تكون الأمانة هي التكليف، وقبول الأوامر، واجتناب النواهي.

ومن علامات الساعة كذلك: قَبضُ العلم وظهور الجهل؛ فقد رُوي عن رسول الله ﷺ: ((من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل)). وقبضُ العِلم يكون بقبض العلماء؛ فقد روي عنه ﷺ: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس

رؤوسا جهالًا ؛ فسئلوا فأفتوا بغير علم ؛ فضلوا وأضلوا)). والمراد بالعلم هنا علم الكتاب والسنة، وهو العلم الموروث عن الأنبياء -عليهم السلام- ؛ فإنّ العُلماء هم ورثة الأنبياء، وبذهابهم يذهب العلم وتموت السنن، وتظهر البدع ويعم الجهل.

ومن علامات الساعة: كثرة الشُّرط وأعوان الظلمة ؛ فقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: ((يخرج رجالٌ من هذه الأمة في آخر الزمان معهم سياط كأنها أذناب البقر ؛ يغدون في سخط الله، ويروحون في غضبه)) والعياذ بالله.

وقد جاء الوعيد بالنار لهذا الصنف من الناس، الذين يتسلطون على المسلمين ويعذبونهم بغير حق.

ومن علامات الساعة كذلك: انتشار الزنا -والعياذ بالله- ؛ فمن العلامات التي ظهرت للساعة ؛ فشو الزنا، وكثرته بين الناس، فقد أخبر النبي ﷺ بأن ذلك من أشراط الساعة.

ومن علاماتها كذلك: انتشار الرّبا ؛ فيَظْهَرُ الرّبا وينتشر بين الناس في المعاملات المادية، وتكثر بين الناس عدم المبالاة بأكل الحرام، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: ((بين يَدي السّاعَةِ يظهر الربا)).

ومن علامات الساعة وأشراطها كذلك: انشقاق القمر ؛ فقد صَرّح القرآن الكريم بهذا في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقد ذكر ابن كثير أحاديث كثيرة، وردت في ثبوت هذه العلامة التي كانت معجزة للنّبي ﷺ ؛ فمنها: ما رواه مسلم في حديث أنس: ((أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين)) وفي رواية أخرى قال: ((بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ؛ فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا)).

وقد أيّد وقوع هذه المعجزة لنبينا ﷺ بعض علماء هذا العصر من غير المسلمين ؛ فقد وجدوا أثر انشقاق القمر باقيًا إلى اليوم ، بعد أن حطوا رحالهم على سطح القمر ، وقد شاهدوا أثر انشقاق القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه الآخر. وهذا دليل على وقوع هذه العلامة ، وهذه المعجزة العظيمة للنبي ﷺ وأنها باقية وظاهرة. وقد أدى هذا عندما حط غير المسلمين على القمر ، ورووا ذلك ونقل عنهم كثير من المفكرين غير المسلمين ، فقد دخلوا في الإسلام بسبب تأكيد هذه المعجزة ، وهذه العلامة حينما حطوا على سطح القمر.

ومن علاماتها كذلك : تَوقّفُ الجِزْيَة والخَرَاج ، ومن علاماتها : الفتوحات والحروب ، وإسناد الأمر إلى غير أهله.

ومن علاماتها : فساد المسلمين ؛ ومن علاماتها -أي : علامات الساعة وأشراطها- ولادة الأمة ربتها ، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان.

ومن علامات الساعة : تداعي الأمم على الأمة الإسلامية ، فمن علامات الساعة تكالب أمم الكفر على هذه الأمة ففي الحديث عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ؛ فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ؛ فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن؟ قال : حُبّ الدنيا وكراهية الموت)).

ومن علامات الساعة كذلك : اختلال المقاييس ، أخبرنا الرسول ﷺ أنّ المقاييس التي يُقَوّم بها الرجال ، تختل قبل قيام الساعة ، فيُقبل قول الكذَبة ويصدق ، ويرد الصادق خبره ، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض ، ويخون الأُمناء

ويتهمون، ويتكلم التّافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس، فلا يُقدمون إلا الآراء الفَجّة، ولا يهدون إلا للأمور المعوّجة، فقد أخرج الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدق فيها الكاذب، ويُكذّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخوّن فيها الأمين، ويَنْطِقُ فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)).

ومن علاماتها: تقارب الزمان؛ عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان)). وعنه > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان؛ فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة)).

ثم من علاماتها كذلك: كثرة موت الفجأة، عن الرسول ﷺ قال: ((إنّ مِن أمَاراتِ السّاعة أن يَظْهَرَ موتُ الفجأة)). فهذه العلامات التي ظهرت.

علامات الساعة التي لم تقع بعد

فمما أخبر به الصادق ﷺ قال: ((عودة جزيرة العرب جنات وأنهارًا)) قال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر الماء ويفيض، حتى يُخرج الرجل زكاة ماله؛ فلا يجدُ أحدًا يقبلها، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهارًا)). وعودَتُها جنات وأنهارًا، إما بسبب ما يقوم به أهلها من حفر الآبار، وزراعة الأرض، وغرس الشجر والنخل، ونحو ذلك مما هو حاصلٌ في زماننا، وإما بسبب آخر، وهذا السبب هو تغير المناخ فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل، ويفجِّر خالقها

فيها من الأنهار والعيون ما يُحول جدبها خصبا، ويُحيل سهولها الجرداء إلى سهول مُخضرة فيحاء. وهذا هو الأظهر؛ فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل.

ومن علامات الساعة التي لم تقع بعد: انتفاخ الأهلة.

من الأدلة على اقتراب الساعة: أن يُرى الهلال عند بدو ظهوره كبيرًا؛ حتى يُقال ساعة ظهوره: إنه لليلتين أو ثلاثة؛ فعن رسول الله ﷺ قال: ((من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلًا فيقال: لليلتين، وأن تُتّخذ المساجد طرقًا، وأن يظهر موت الفجأة)). وعنه ﷺ أنه قال: ((من اقتراب الساعة انتفاخُ الأهلة)).

ومن علامات الساعة التي لم تقع بعد: تكليم السباع والجماد الإنس.

ومن علامات الساعة التي لم تظهر: انحسار الفرات عن جبل من ذهب، روى البُخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب؛ فمن حضره، فلا يأخذ منه شيئًا)). وفي رواية: ((يحسر عن جبل من ذهب)) ومعنى انحساره: انكشافه، لذهاب مائه كما يقول النووي: فيذهب ماؤه، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه؛ فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب، وهو غير معروف؛ فإذا ما تحول مجرى النهر بسببٍ من الأسباب، ومر قريبًا من هذا الجبل كشفه، والسبب في نهي الرسول ﷺ من حظره عن الأخذ منه؛ لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال، وسفك الدماء.

ومن علامات الساعة التي لم تظهر: إخراج الأرض كنوزها المخبوءة، ومنها: محاصرة المسلمين إلى المدينة؛ فمن أشراط الساعة أن يُهزم المسلمون، ويُحيط بهم أعداؤهم ويحاصرونهم في المدينة المنورة، عن ابن عمر > قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُوشك المسلمون أن يُحاصروا إلى المدينة؛ حتى يكون

أبعد مسالحهم سَلاح)). والمسالح جمع مسلحة وهي الثغر، والمُراد أبعد مواضع المخافة من العدو، و"سلاح" موضع قريب من خيبر.

ومن علامات الساعة التي لم تظهر: إحراز الجهجاه المُلك. والجهجاه هذا اسم لرجل. فهذه العلامة تعني أن يتحقق لهذا الرجل الملك عن النبي ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)). رواه البخاري ومسلم. والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه: أنه يغلب النّاس؛ فينقادون له ويُطيعونه، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته.

ثُمّ من العلامات التي لم تظهر: فتنة الأحلاس؛ وفِتْنَةُ الدَّهْمَاء، وفِتْنَةُ الدُّهَيماء، عن عبد الله بن عمر، قال: ((كنا عند رسول الله ﷺ قعودًا نذكر الفتن؛ فأكثرَ من ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس، فقال قائل: وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي فتنة هرب -أو حرب- ثم فتنة السّراء، دَخلها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني، وليس مني. وإنّما ولي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدُّهيماء لا تدع أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته، فإذا قيل: انقطعت تمادت؛ يُصبح الرجل فيها مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، حتى يصير الناس إلى فسطاطين -قسمين- فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد)).

ونتناول شرح بعض الكلمات التي وردت في هذا النص من الحديث:

"الأحلاس" جمع: حِلس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شبهت به الفتنة لملازمتها للناس حين تنزل بهم، كما يُلازم الحِلْس ظَهر البعير، وقد قال الخطابي: يُحتمل أن تكون هذه الفتنة شُبّهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها.

و"الحَرَب" ذهاب المال والأهل، يقال: حَربَ الرّجل فهو حريب فلان، إذا سَلب ماله وأهله. و"السراء" النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية، وأُضيفت الفتنة إليها؛ لأنّ النعمة سببها: إذ إن الإنسان يرتَكِبُ الآثام والمعاصي بسبب ما يتوفر له من الخير.

وقوله: "كورِك على ضلع" هذا مثل للأمر الذي لا يستقيم، ولا يَثْبُت؛ لأن الورك لا يتركبُ على الضّلع ولا يستقيم معه، و"الدُّهيماء" الداهية التي تدهم الناس بِشَرّها.

خـــــروج المهـــــدي

ومن أشراط الساعة الكبرى الدالة على قربها: خروج المهدي. فمن المهدي؟

المهدي: هو رجل من آل بيت النبوة؛ يخرج في آخر الزمان، يلي أمر هذه الأمة، ويملك سبع سنين؛ فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما مُلأت جورًا وظُلمًا، واسم المهدي يُوافق اسم النبي ﷺ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ وهو من ذُرية، فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن على { .

قال ﷺ: ((لا تذهب الدّنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي - يملك العرب، أي: يكون ملكًا عليهم - يُواطئ اسمه اسمي)) رواه الترمذي وأبو داود.

صفته الواردة: قال ﷺ: ((المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملأت ظلمًا وجورًا، يملك سبع سنين)) أي: يكون ملكًا حاكمًا على الناس في مدة سبع سنين، و يكون ظهور المهدي من قبل المشرق كما صرحت بذلك الأحاديث، وتواترت أحاديث كثيرة في خروج المهدي.

ومن الأدلة من السُّنة تثبت وجود وظهور المهدي في آخر الزمان: عن أبي سعيد الخدري > أنّ رَسولَ الله ﷺ قال: ((يَخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها ويعطي المالُ سحاحًا، وتكثر الماشية، يعيش سبعًا أو ثمانيًا)) يعني حججا. وقال ﷺ: ((أبشركم بالمهدي، يبعث على اختلاف من الناس وزلازل؛ فيملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلأت جورًا وظلمًا، يرضى عنه ساكنو السماء وساكنو الأرض يقسم المال سحاحًا)) فقال له رجل -أي: قال رجل لرسول الله ﷺ يسأل: ما معنى سحاحًا فأجاب النبي ﷺ شارحًا معنى سحاحًا قال: ((بالسوية بين الناس)).

وعن علي > قال: قال رسول الله ﷺ: ((المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة)) وعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم)) يقصد به المهدي.

ونبين الآن عقيدة أهل السنة والجماعة في ظهور المهدي في آخر الدنيا، وأنه علامة من أشراط الساعة: أما عقيدة أهل السنة والجماعة: فهي موافقة لكل ما سقناه من الأحاديث الصحيحة، وأن المهدي حاكم صالح راشد يبعثه الله مجددًا لهذا الدين، ويُعلي اللهُ هذا الدين على يديه، ويُظهره الله في آخر الزمان، ويكون ظهوره قبل نزول عيسى.

يقول ابن خلدون: اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل البيت في ممر الأعصار: أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت، يؤيد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويُسمى بالمهدي، ويكون ظهور الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده؛ فيقتل الدجال أو ينزل معه؛ فيساعده على قتله، ويأخذ بالمهدي في صلاته.

بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

وقد خالف أهل السنة في هذا الاعتقاد في المهدي بعض الفرق الذين يعتقدون أنّ المهدي هو آخر أئمتهم، وهو الإمام الثاني عشر، وهذا الاعتقاد يخالف النصوص التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ.

وفريق آخرَ قد كَذّب بالمهدي، وقد كذّب البَعض بوجود المهدي، وهؤلاء أفراد من اللذين يُنسبون لأهل السنة، وهم قوم ليس لهم باعٌ في تحقيق النصوص، والكشف عن الأسانيد، وقد دحض شُبهاتهم كثير من أهل العلم في مؤلفات مستقلة، وكذلك ظهر رجال من الحكام الماضيين، ادعوا أنهم المهدي، أو ادعاها لهم أقوامهم، وبعض هؤلاء رجالٌ صالحون لُقّب الواحد منهم بالمهدي، لا ذلك المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ بل تفاؤلًا بأن يكونوا من الأئمة المهديين، وليسوا هم اللذين ينطبق عليهم صفات المهدي، الذي ذكره الرسول ﷺ في الأحاديث الصحيحة.

وهنا يظهر حديث، يجب أن نناقشه حديث: ((لا مهدي إلا عيسى ابن مريم)) فهل هذا الحديث يتعارض مع النصوص والأحاديث التي عرضناها سابقًا؛ في أن المهدي من علامات الساعة ومن أشراطها، وأنه يأتي في آخر الزمان، وأنه يأتي قبل عيسى # ؟

الجواب عنه: احتج بعض المنكرين لأحاديث المهدي بالحديث الذي رواه ابن ماجه، والحاكم، عن أنس > أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدُّنيا إلا إقبارًا، ولا النّاس إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدي إلا عيسى ابن مريم".

رد عن ذلك القول شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "هذا الحديث ضعيف، وقد اعتمد أبو محمد بن الوليد البغدادي وغيره عليه، وليس مما يُعتمد عليه، ورواه ابن ماجه عن يونس، عن الشافعي، والشافعي رواه عن رجل من أهل اليمن، يُقال له: محمد بن خالد الجندي، وهو ممن لا يحتج به، وليس هذا في مسند الشافعي، وقد قيل: إنّ الشّافعي لم يسمعه من الجندي، وإن يونس لم يسمعه من الشافعي".

هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في قوله هذا يؤيد أن هذا الحديث ضعيف. وأيد هذا الرأي -رأي شيخ الإسلام ابن تيمية- الحافظ ابن حجر فقال عن درجة هذا الحديث، وعن رجاله: "مجهول"، وقد خالف في ذلك الحافظ ابن كثير، فقال فيه: "إنه حديث مشهور".

والتحقيق: أنّ هذا الحديث مخالفٌ للأحاديث التي وردت في إثبات مهدي غير عيسى ابن مريم، إما قبل نزوله؛ كما هو الأظهر من الأحاديث الواردة -والله أعلم بهذا- وإما بعده، وعند التأمل لا يتنافيان، هذان النصان من الأحاديث. بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق، الذي يأتي قبل عيسى، وهو رجل من أمة سيدنا محمد يتصف بالصفات التي ذكرناها: اسمه على اسمي، واسم أبيه على اسم أبي رسول الله ﷺ؛ أي: محمد بن عبد الله، ويسود العدل ويؤيد الدين ويرفع الظلم.

ثم يكون مهدي أي أن المهدي حق وهو هذا الرجل، والمهدي كذلك هو عيسى ابن مريم، ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهديًّا أيضًا، وقال القرطبي: يُحتمل أن قوله ﷺ: "ولا مهدي إلا عيسى". أي: لا مهدي كاملًا معصومًا إلا عيسى، وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض؛ فيكون مهدي قبل عيسى، ثم يأتي عيسى بعده، وهو مهدي كاملًا معصومًا.

علامات الساعة الكبرى (١)

عناصر الدرس

الدخان

من علامات الساعة الكبرى: الدخان:

وعن حذيفة بن أسيد قال: ((اطلع النبي ﷺ أي: اطلع علينا- ونحن نتذاكر الساعة فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال ﷺ: إنها لن تقوم حتى ترى عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن ترد الناس إلى محشرهم قال تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾)) أي: يملأ ما بين المشرق والمغرب.

وفي رواية أخرى: أنه قال ﷺ: ((إنما كان هذا لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﷻ: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾)).

وورد عن ابن مسعود أيضًا أنه كان يقول: "هما دخانان مضى واحد والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة، وأما الكافر فيشق مسامعه، فيبعث الله عند ذلك ريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الناس.

وللعلماء في المراد بهذا الدخان قولان:

أحدهما: أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع، فعندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان. وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود > وتبعه جماعة من السلف.

الرأي الثاني: أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجئ بعد، وأنه سيقع قرب قيام الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يومًا؛ فمما روي: "أن من أشراط الساعة دخانًا يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث في الأرض أربعين يومًا؛ فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره" رواه الطبراني.

وقد ذهب بعض العلماء إلى الجمع بين هذه الآثار، بين قول ابن مسعود > الذي يرى أن هذا الدخان هو بسبب ما أصاب قريش من الشدة والجوع، وبين قول ابن عباس وبعض الصحابة أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجئ بعد وسيقع قرب قيام الساعة؛ وذلك بقولهم: بأنهما دخانان ظهر أحدهما وبقي الآخر، وهو ما سيقع في آخر الزمان. هذا فيما يتعلق بالعلامة الأولى من علامات الساعة الكبرى وهي الدخان.

المسيح الدجال

وأما العلامة الثانية فهو: المسيح الدجال:

ومعنى المسيح: ذكر أبو عبد الله القرطبي ثلاثة وعشرين قولًا في اشتقاق هذا اللفظ وأصلها، وقد أوصلها صاحب (القاموس) إلى خمسين قولًا، وهذه اللفظة تطلق -لفظة المسيح- تطلق على الصديق، وكذلك تطلق على الضليل

الكذاب، فالمسيح عيسى ابن مريم # الصديق، والمسيح الدجال الضليل الكذاب، فخلق الله المسيحين أحدهما ضد الآخر؛ فعيسى # مسيح الهدى يبرأ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، والدجال -لعنه الله- مسيح الضلالة يفتن الناس بما يعطاه من الآيات كإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات وغيرهما من الخوارق.

وسُمي الدجال مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة؛ هذا قول، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يومًا، ولكن القول الأول هو الراجح؛ لما جاء في معنى الدجال في الحديث: ((إن الدجال ممسوح العين)).

أما لفظ الدجال: مأخوذ من قولهم: دجل البعير إذا طلاه بالقطران وغطاه به، وأصل الدجل معناه الخلط، يقال: دجل إذا لبس وموه والدجال المموه الكذاب الممخرق، وهو من أبنية المبالغة على وزن فعّال؛ أي يكثر منه الكذب والتلبيس وجمعه دجالون، وقد جمعه الإمام مالك > على دجاجلة وهو جمع تكسير.

وذكر الإمام القرطبي أن الدجال في اللغة يطلق على عشرة وجوه، ولفظ الدجال أصبحت علمًا على المسيح الأعور الكذاب؛ فإذا قيل: الدجال فلا يتبادر إلى الذهن غيره، وسمي الدجال دجالا؛ لأنه يغطي الحق بالباطل أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم، وقيل: لأنه يغطي الأمر بكثرة جموعه.

وهذه الأقوال تعطي دلالة على أن الدجال يغطي ويكذب حقيقة أمره من الكفر ومن الكذب.

فتنة الدجال:

فتنة الدجال هذه تقع في آخر الزمان، وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى، وفتنته أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها، وفي (صحيح مسلم) عن

أبي الدهماء وأبي قتادة قالوا: كنا نمر على هشام بن عامر فأتى عمران بن حصين، فقال ذات يوم: إنكم لتجاوزوني إلى رجال ما كانوا بأحضر إلى رسول الله ﷺ مني، ولا أعلم بحديثه مني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر من الدجال)) وفي رواية: ((أمر أكبر من الدجال)).

من أجل ذلك حظر جميع الأنبياء أقوامهم من فتنته، ولكن رسولنا ﷺ كان أكثر تحذيرًا لأمته منهم، ففي (صحيح البخاري) و(مسلم) عن أنس > قال: قال النبي ﷺ: ((ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وأن بين عينيه مكتوب كافر))، وعنه ﷺ أنه قال: ((يا أيها الناس إنما لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنةً من الدجال، وإن الله ﷻ لم يبعث نبيًّا إلا حذّر أمته من الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة)).

وسببُ فتنة الدجال وأنها أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة؛ سبب ذلك ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول وتحير الألباب؛ فقد ورد أن معه جنة ونارًا، وجنته نار وناره جنة، وأن معه أنهار الماء، وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح.

وقد دل على ذلك من الأحاديث النبوية الكثير، فمما رواه الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر، معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار)) ومعنى جفال الشعر: أي كثيف الشعر.

حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال:

فإن قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير وقوة عظيمة، وأن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة، وفي ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم، ويغزون جميعا عدوًا مشتركًا، فينصرون عليه، ثم تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين ففي (سنن أبي داود) عن رسول الله ﷺ يقول: ((ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلون بمرج ذي تلول، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليب فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة)) وزاد بعضهم: ((فيثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة)).

والملحمة معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبين، وقد جاء أكثر من حديث يصف هذه المعركة وهولها، وكيف يكون صبر المسلمون فيها، ثم يكون النصر لهم على أعدائهم.

هذا هو حال المسلمين ابتداءً في العصر الذي يخرج فيه الدجال، ثم يكون حال المسلمين بعد ذلك القحط والمجاعة قبيل خروج الدجال، وفي هذا يحدث للناس ابتلاء شديد فتمنع السماء القطف وتحبس الأرض النبات، فمما يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد؛ يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت

خضراء فلا يبقى ذات ظلف -الظلف للبقرة والشاة والظبي كالحافر لغيرها- فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل والتكبير والتحميد ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام)).

ما هي صفات الدجال وعلاماته؟

فصفات الدجال أنه رجل من بني آدم، له صفات كثرة جاءت بها الأحاديث؛ فقد ورد كلامٌ كثير ووردت آثار وروايات ضعيفةفي وصف الدجال، وهذه الصفات لا نستطيع أن نعتمد على شيء منها إلا ما كان واردًا فيها حديث صحيح؛ فقد ورد أنه يدعي الربوبية، ويأتي من الأعمال الخارقة ما يروج به باطله، حتى إن الرجل يأتيه ظانًّا أن أمره لن يخفى عليه، وأن باطله لن يروج له، ولكن عندما يرى ما عنده من خوارق يتبعه، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: ((من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات- أو لما يبعث به من الشبهات)).

وقد وصفه الرسول ﷺ وصفًا يبرز شخصيته، ويبين ويوضح معالم صورته وهيئته في جسمه؛ ففي (صحيح البخاري) عن رسول الله ﷺ: ((أنه رأى الدجال في رؤيا، فجاء في وصفه له أنه رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة ضافية أو طافية)).

قالوا: هذا الدجال أقرب الناس به شبهًا ابن قطب واسمه عبد العزة بن قطب بن عمرو الخزاعي. وفي حديث آخر يذكر أن: ((الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر)) وجفال الشعر؛ أي كثيره.

وفي رواية: ((إن مسيح الدجال رجل قصير أفجح جعد الرأس مطموس العين، ليست بناتئة ولا جحراء -والنتوء هو الارتفاع والانتفاخ؛ أي أن عينه ليست

بارزة، وجحراء بفتح الجيم وسكون الحاء؛ أي ليست غائرة منجحرة في نقرتها- فإن أُلبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور)).

وفي رواية أخرى عن أنس > قال: قال ﷺ: ((وإن بين عينيه مكتوب كافر)) وفي رواية أخرى: ((يقرؤه كل مسلم)) كما وردت في (صحيح مسلم) أو ((يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)) أي: يقرأ في وجهه كلمة كافر، وهذه الكتابة حقيقية على ظاهرها.

ومن صفاته كذلك: أنه لا يُولد له فهو ليس له عقب، وقد أخبر بذلك الرسول ﷺ: ((أن الدجال عقيم لا يولد له)).

ونستطيع أن نجمل صفات الدجال بقولنا: بأنه رجل شاب أحمر قصير، جعد الرأس أجلى الجبهة عريض النحر ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست ببارزة ولا مجوف مكانها، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، ومعنى ظفرة غليظة؛ أي لحمة تنبت عند المآقي، وهو مقدمة العين، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه، ومكتوبٌ بين عينيه حرف الكاف والفاء والراء، وهي حروف كفر أو كافر بالحروف المقطعة أو كلمة كافر بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم أو مؤمن، كاتب وغير كاتب.

هذه بعض صفاته التي صرحت بها الأحاديث الصحيحة، وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي أنه قد ورد ذكره كذلك في القرآن الكريم، وهذه الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ المقصود في الآية بالآيات: هي الدجال وطلوع الشمس من مغربها والدابة، وأيد هذا التفسير ما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض)).

وقد ورد كذلك ذكره في قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وإن المقصود بالناس هنا الدجال، من باب إطلاق الكل على البعض، قال أبو العالية - وهو من كبار التابعين: "أي: أعظم من خلق الدجال حين عظمة اليهود" كما ورد في تفسير القرطبي.

مكان خروج الدجال:

يخرج الدجال من جهة المشرق من بلاد فارسية يقال لها: خراسان، وخراسان هذه بلاد واسعة من جهة المشرق وتشمل عدة بلدان منها نيسابور وهوراء ومرج وبلخ، وما يتخلل ذلك من المدن باستثناء نهر جيحون؛ فقد روى الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد عن أبي بكر الصديق > أنه قال: قال: حدثنا رسول الله ﷺ فقال: ((إن الدجال يخرج من أرض المشرق يقال لها: خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة)).

وفي حديث عن أنس عنه ﷺ أنه قال: ((يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفًا من اليهود)).

وقال ابن حجر: وأما من أين يخرج؟ فمن قبل فمن قبل المشرق جزمًا.

وقال ابن كثير عن مكان بدء ظهوره: يكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة يقال لها: اليهودية، وأصبهان مدينة بالموضع المعروف بجي، وهو الآن يعرف بشهرستان، وأما ظهور أمره للمسلمين فيكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام؛ فمما يروى في (صحيح مسلم) يؤيد ذلك ما روي في الحديث: ((إنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق، والخلة ما بين البلدين، فعاث يمينا وعاث شمالا: يا عباد الله فاثبتوا)).

مدة مكثه في الأرض:

يمكث الدجال في الأرض أربعين يومًا؛ يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع، وسائر أيامه كسائر أيامنا؛ فقد سأل الصحابة } رسول الله ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض، فجاء في حديث النواس بن سمعان > في ذكر الدجال: ((أن الصحابة قالوا: يا رسول الله وما لبسه في الأرض؟ قال: أربعون يوما؛ يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قالوا: وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث إذا استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم -السارحة هي الماشية- أطول ما كانت ذرًّا وأسبغه دروعًا وأمده قواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخيمة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئًا شابًّا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغلط ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك)).

وجاء في رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري > : "أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خير الناس، يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله ﷺ فيقول للدجال: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه فيقول -أي: الرجل-: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه".

وفي رواية أخرى عنه ﷺ: ((أن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه؛ فإنه ربك)).

سأل الصحابة الرسول : وعن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض وهو اليوم كالسنة ؛ قلنا : ((يا رسول الله وذاك اليوم الذي كالسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال : لا اقدروا له قدره)).

أتباعه :

أكثر أتباع الدجال هم اليهود والنساء وأخلاط الناس ، والمسيح الدجال الأعور الكذاب هو الملك الذي تنتظره اليهود ليحكم العالم في عهده ؛ مما يروى عنه ﷺ أنه قال : ((أكثر أتباع الدجال اليهود والنساء)) ويتبعه كذلك من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة ، والطيالسة جمع طيلسان والطيلسان أعجمي معرب وهو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن ينسج للبس خال من التفصيل والخياطة.

وفي رواية أخرى : ((يتبعه أقوام كأن وجههم المجان المطرقة)) قال ابن كثير -رحمه الله- : الظاهر -والله أعلم- أن المراد هؤلاء الترك أنصار الدجال ، وقد ذكر صاحب كتاب (أشراط الساعة) أن أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك وأخلاط من الناس غالبه الأعراب والنساء ، أما كونه أكثر أتباعه من الأعراب فلأن الجهل غالب عليهم ، وما جاء في الحديث السابق ذكره : ((وإن من فتنته -أي الدجال- أن يقول للإعرابي رأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك)) وأما النساء فحالهن أشد من حال الأعراب لسرعة تأثرهن وغلبة الجهل عليهن ؛ ففي الحديث : ((ينزل الدجال في هذه السبخة بمر قناة -وهو واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بطرف القدوم في أصل قبور الشهداء في أحد- فيكون أكثر من يخرج إليه النساء ؛ حتى إن الرجل يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا مخافة أن تخرج إليه)).

علامات الساعة الكبرى (٢)

عناصر الدرس

الـدجال لا يـدخل مكـة والمدينـة

هل الدجال يدخل مكة والمدينة أم لا يستطيع أن يدخلهما؟

والجواب عن ذلك: أنه حرم على الدجال دخول مكة والمدينة، حين يخرج في آخر الزمان، فيقصد الدجال المدينة المنورة، فلا يستطيع دخولها، ذلك أن الله حمى مكة والمدينة من الدجال والطاعون، ووكل حفظها إلى ملائكته، ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة مرفوعًا: ((على أنقاب المدينة ملائكةٌ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال))، روى البخاري أيضًا عن أنس: ((لا يدخل المدينةَ رعبُ المسيحِ، لها يومئذٍ سبعةُ أبواب على كل باب ملكان)).

وفي (سنن الترمذي) و(مسند أحمد) عن أبي هريرة > : ((يأتي المسيح من قِبل المشرق وهمته المدينة، حتى إذا جاء دبر أحد، تلقته الملائكة فضربت وجهه قِبَلَ الشام، هنالك يهلك، هنالك يهلك)).

وفي رواية: ((فغيّرت وجْهَتَه قِبل الشام، هنالك يهلك، هنالك يهلك)) وعنه ﷺ: ((وإنه لا يبقى شيء من الأرض، إلا وطئه، وظهر عليه إلا مكة والمدينة، لاَ يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ أنقَابِها إلاَّ لَقِيَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بِالسُّيوفِ صَلْتَةً حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الأَحْمَرِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ فَلاَ يَبْقَى فيها مُنَافِقٌ وَلاَ مُنَافِقَةٌ إِلاَّ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَنْفِي الْخَبَيثَ مِنْهَا، كَمَا يَنْفِى الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ الْخَلاَصِ، فقيل: فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل)).

والوقاية من فتنة الدجال تكون بالتمسك بالإسلام والاعتصام بالله، والعلم بأسماء الله وصفاته، والتعوذ بالله من فتنة الدجال، وحفظ آياتٍ من سورة الكهف، كقوله ﷺ: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال)) أي: من فتنته، وكذلك الفرار من الدجال والابتعاد عنه، هذا لمن يكون حاضرًا حينما يخرج، ويكون هلاك الدجال على يدي عيسى ابن مريم # .

أقوال أهل العلم في ابن صياد

القول في ابن صياد وما قيل فيه، هل هو الدجال أو شخص آخر؟

تعريف ابن صياد:

اسمه صافي، وقيل: عبد الله بن صياد أو صائد، كان من يهود المدينة، وقيل: من الأنصار، وكان صغيرًا عند قدوم النبي ﷺ المدينة، فذكر ابن كثير أنه أسلم، وكان ابنُه عمارة من سادات التابعين، روى عنه الإمام مالك وغيره، وترجم له ابن حجر وقال: "ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صياد، وكان من خيارِ المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيب، روى عنه مالك وغيره".

أحوال ابن صياد:

كان دجالًا، وكان يتكهن أحيانًا، فيصدق مرة، ويكذب مرة، فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجال، قال القرطبي: قال أبو سليمان الخطابي: وقد اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافًا كثيرًا، وأُشكل أمره، حتى قيل فيه كل قول، وأن العلماء من الصحابة ومن بعدهم، قد اختلفوا في أمره اختلافًا كثيرًا، فمنهم من قال

أنه الدجال، ومنهم من قال أنه من جملة الكهنة، و المخرقين الكذابين، ولعل الصواب -والله أعلم- أنه ليس الدجال الأكبر، وإنما هو من جملة الدجاجلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في معرض حديث له عن الأحوال الشيطانية، قال: "مثل حال عبد الله بن صياد، الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، فتوقف النبي ﷺ في أمرِهِ، حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ: ((قد خبأت لك خبيئة))، قال: الدخ الدخ، وقد كان قد خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك))، يعني: إنما أنت من إخوان الكهان.

والكهان كانوا يكون لأحدهم القرين من الشياطين، يخبره بكثيرٍ من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب. وقال ابن كثير: والمقصود أن ابن صياد، ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعًا، هذا هو خلاصة ما قيل في القول في ابن صياد، وإذا قيل: كيف كان في المدينة، وكان النبي ﷺ في هذا الوقت، وكان يفعل هذه الأشياء، وكان يتتبعُهُ النبي ﷺ والصحابة؟

فقد رد البعض بأن هذه هي الفترة التي كان النبي ﷺ قد عاهد فيها اليهود، وفي تلك الفترة ظهر ابن صياد.

الدجال في خبر تميم الداري

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس: ((أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، قالت: فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قَضَى رسول الله ﷺ صلاتَهُ، جلس على المنبر وهو يضحك فقال: يلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا

لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميمًا الداري، كان رجلًا نصرانيًّا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عنه عن المسيح الدجال، حدثني: أنه ركب في سفينةٍ بحريةٍ مع ثلاثين رجلًا من لخمٍ وجذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثيرة الشعر، لا يدرون ما قُبُلَهُ من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم، انظروا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمَّتْ لنا رجلًا فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشده وثاقًا، مجموعةٌ يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدَّرْتُم علي خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهرًا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه؛ فجلسنا في أَقْرُبِنَا، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثيرُ الشعر -أو كثيرة الشعر- لا يُدَرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعًا، وفزعنا منها، ولم نأمل أن تكون شيطانة، قال: فأخبروني عن نخل بيسان؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة، ونزل يثرب، قال: أقاتَلَهُ العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه،

قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركُم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذَنَ لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدعُ قريةً إلا هبطتها في أربعين ليلة إلا مكة وطيبة، فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أدخل واحدة منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتًا يصدني عنها، وإن على كل نقبٍ منها ملائكةٌ يحرسونها، قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة -يعني: المدينة- ألا كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنه أعجبني حديث تميم، أنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق ما هو من قِبَلِ المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق))، فقالت: "فحفظت هذا من رسول الله ﷺ".

وهذا الحديث يدل دلالةً واضحة، على أن ابن صياد لم يكن الدجال الأكبر، وأن الدجال الأكبر محبوسٌ في بعض جزائرِ البحور، ولعله كما يقول بعض العلماء: شيطان من الشياطين الذي حبسهم نبيُّ الله سليمان؛ إذ يبعد وجودُ بشر على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة - والله أعلم بالصواب.

نـــــــزول عيـــــــسى

من أشراط الساعة: نزول عيسى ابن مريم # :

وعقيدة المسلمين فيه مجملها: أنه عبد الله ورسوله، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأنه وُلِدَ من غيرِ أب، كما خُلِقَ آدم من غير أب ولا أم، وأنه أحد أولي العزم من الرسل، وأنه عبدٌ ليس له من خصائص الربوبية ولا الإلوهية شيء، وأن الله قد أظهر على يديه المعجزات والآيات، كإحياء الموتى، وإبراء

الأكمه، وأنه كلَّمَ الناس في المهد صبيًّا، وأنه دعا قومَهُ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه بشّر بنبوة سيدنا محمد ﷺ، وأنه ليس بينه وبين نبينا محمد ﷺ نبي، وأنه لم يصلب ولم يُقْتَل، بل رفعَهُ اللهُ إليه، وأنه ينزل في آخر الزمان كما سيأتي تفصيل ذلك، وأنه يموت في الأرض ويدفن فيها، ويبعث منها كسائر بني آدم.

نزول عيسى ابن مريم # :

أخبرنا الحق -تبارك وتعالى- أن اليهود لم يقتلوا رسوله عيسى ابن مريم، وإن ادعوا هذه الدعوى، وصدقها النصارى، والحقيقة: أن عيسى لم يُقْتَل، ولكن الله ألقى شبهه على غيره، أما هو فقد رفعه الله إلى السماء، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

وأشار الحق في كتابه: إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان، وأن نزولَهُ يكون علامةً دالةً على قرب وقوع الساعة: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، كما أخبر أن أهل الكتاب في ذلك الزمان، سيؤمنون به: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

وقد جاء تفصيل هذه النصوص في السنة النبوية: فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان، ينزل الله عبده ورسوله عيسى # ، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: ((ينزل عيسى ابن مريم، عند المنارةِ البيضاء شرقي دمشق)).

وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله، ففي (سنن أبي داود) بإسناد صحيح، عن النبي ﷺ قال: ((ليس بيني وبين عيسى نبي، وأنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوعٌ إلى الحُمْرَةِ والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل)).

وقت نزوله:

ويكون نزوله وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر، وتقدم إمامهم للصلاة، فيرجع ذلك الإمام طلبًا من عيسى أن يتقدَّمَ فيؤمهم، فيأبَى، ففي الحديث: ((وإمامهم -أي: إمام الجيش الإسلامي- رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح، إذ نزل عيسى # ، فرجع ذلك الإمام، ينكص يمشي القهقري؛ ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصلي، فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم)).

ويكون هذا في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال، ففي حديث أبي هريرة: ((فبينما هم يعدون للقتال يسوُّون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأمهم))، ولفظه في كتاب الإيمان: ((كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمّكم))، وليس المراد هنا في هذا الحديث أن عيسى أمهم في الصلاة، فالحديث الأول يدل على رفض عيسى للتقدم، وأنه قدم الإمام الذي أقيمت له الصلاة، ومثله حديث الرسول ﷺ: ((كيف أنتم إذا نزل بن مريم فيكم، وإمامكم منكم)).

بماذا يحكم عيسى # ؟

يحكم عيسى # بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ فإنه لا ينزل بشرعٍ جديدٍ؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباقٍ إلى قيام الساعة لا يُنْسَخُ،

فيكون عيسى # حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام؛ إذ لا نبيَّ بعد محمدٍ ﷺ.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة > ، أن رسول الله ﷺ قال: ((كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم، وإمامكم منكم؟)) وعن جابر بن عبد الله > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعالَ صلي بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)). فأما صلاته فقد سبق في الحديث ذكر ذلك، وقتاله للكفار وأتباع الدجال.

وأما حجه: ففي (صحيح مسلم) عن حنظلة الأسلمي، قال: سمعت أبا هريرة > يحدث عن النبي ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده ليهلنَّ ابنُ مريمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاء، حَاجًّا أو مُعْتَمِرًا، أو ليثنينهما)) أي: يجمع بين الحج والعمرة.

وأما وضع عيسى للجزية عن الكفار، مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله # ، وليس هذا نسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا، فإن مشروعية أخذ الجزية مقيدٌ بنزول عيسى # بإخبار نبينا محمد ﷺ فهو المبين للنسخ لقوله لنا: ((والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسرنَّ الصليب، ويبطلن الخنزير وليضعنَّ الجزية)).

وزمن عيسى # زمن أمنٍ وسلام ورخاء، يرسل الله فيه المطر الغزير وتُخْرِجُ الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال، وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد، قال ﷺ: ((ثم يرسل الله مطرًا)).

مدة بقائه بعد نزوله، ثم وفاته:

وأما مدة بقاء عيسى # في الأرض بعد نزوله: لقد جاء في بعض الروايات: أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة، ففي رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر } : ((فيبعث الله عيسى ابن مريم، ثم يمكث في الناس سبعَ سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردًا من قِبَلِ الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ، في قلبِهِ مثقال ذرة من خير، أو إيمان إلا قبضته)).

وفي رواية الإمام أحمد، وأبي داود: ((فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوَفَّى ويصلي عليه المسلمون))، وكلا هاتين الروايتين صحيحة، إلا أن تُحْمَل رواية: "سبع سنين" على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مكثه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة وثلاثين سنة على المشهور.

ظهور يأجوج ومأجوج

من علامات الساعة الكبرى: ظهور يأجوج ومأجوج:

وقد ورد عن يأجوج ومأجوج روايات ضعيفة في وصفهم، فصنفٌ يصفهم بأن أجسادهم كالأَرْز، وهو شجر ضخم كبير جدًّا، وصنف يصفهم لهم أربعة أذرع في أربعة أذرع، وصنفٌ يصفهم بأنهم يفترشون آذانهم، ويلتحفون بالأخرى، وصنف يصفهم بأنهم يأكلون جميع حشرات الأرض، من الحيات والعقارب، وأن منهم له قرن وذَنَب، ومنهم من يصفهم بأن طوله شبر أو شبران، فما حقيقة خلقهم؟

وقبل أن نتحقق ونذكر الأدلة الصحيحة في وصفهم، وأنهم علامة وشرط من أشراط الساعة الكبرى، نقول:

المعنى اللغوي: يأجوج ومأجوج:

قيل: إنهما اسمان عربيان وقيل أعجميان، وقرأهما عاصم بالهمز، والباقون من أهل القراءات بغير همز أي: "ياجوج"، والذي قرأ والذي قرأ بالهمز نطق: "يأجوج ومأجوج"، والذي قرأهما من غير همز من أصحاب القراءات الأخرى قرأهما: "ياجوج وماجوج".

وقال القرطبي: إنهما كلمتان مشتقتان من أجة الحر، وهي شدته وتوقده، ومن أجيج النار، ومن قولهم: ماجًّا، فيكونان عربيان من أجَا ومجَا، ولم يُصرفا؛ لأنهما جعلا اسمين، فهما مؤنثان معرَّفَتَان، ومن قرأهما بغير همزة، قال: إنهما اسمين لقبيلتين أعجميتين، ولم يصرفا للعجمة والتعريف.

وقيل: إن اشتقاقهما يأجوج ومأجوج من أجَّتِ النار أجيجًا، أجت النار أجيجا إذ التهبت، أو من الأجاج، وهو الماء الشديد الملوحة المحرق من ملوحته، وقيل عن الأجى، وهو سرعة العدو، وقيل: مأجوج من ماجا إذا اضطرب.

وقال ابن حجر ردًّا على من ادعى أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم لا من حواء، وذلك أن آدم احتلم؛ فاختلط منيُّهُ بالتراب، فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، ولم نرَ هذا عند أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار، ويرده الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ أنه من ذرية نوح، ونوح من ذرية آدم وحواء قطعًا، وقيل: إن يأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبو الترك، ويافث من ولد نوح # .

والذي يدل على أنهما من ذرية آدم # ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخْرِج بعثَ النار، قال: وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغيرُ، وتضع كلُّ ذاتِ حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قالوا: وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألفًا، فرد النبي ﷺ: أن من أمة مأجوج ومأجوج تسعمائة تسعة وتسعين، ومن أمة محمد ﷺ واحد)) أي: أن الواحد من أمة سيدنا محمد.

صفتهم الجسدية كما وردت في الأحاديث النبوية:

أنهم صغار العيون، زلف الأنوف، صُهْبُ الشعور عِرَاض الوجوه، وأنهم رجال أقوياء لا طاقةَ لأحد بقتالهم، ويبعد أن يكون طول أحدهم شبرًا أو شبرين، ففي حديث النواس بن سمعان: ((أن الله تعالى يوحي إلى عيسى # بخروج يأجوج ومأجوج، وأنه لا يدَ لأحدٍ بقتالِهم، فحرّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون))، والحدب هو كل موضع غليظ مرتفع، أي: أنهم يظهرون من غليظ الأرض ومرتفعها.

وقد ذكر الحق -تبارك وتعالى- في سورة الكهف: أن ذا القرنين كان يطوف في الأرض، حتى بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قومًا لا يكادون يفقهون قولًا، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبين جيرانهم سدًّا، يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم، بعد أن استغاثوا به منهم، كما ذكر تعالى في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

وقد وردت أدلة في القرآن الكريم تثبت وجودهم وظهورهم آخر الزمان، وأنهم من أشراط الساعة وعلاماتها.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴾ [الكهف: ٩٢- ٩٩].

وأما الأدلة من الأحاديث والسنة المطهرة:

فمنها ما ثبت في الصحيح عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش: أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعًا، يقول: ((لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث)).

ومنها ما جاء في حديث النواس بن سمعان > وفيه: ((إذا أوحى الله إلى عيسى: أني قد أخرجتُ عبادًا لي، لا يدان لأحدٍ بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرةِ طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان في هذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم، خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابِهم، فيصبحون فَرْسى كموت نفس واحدة -وفرسى أي: قتلى- ثم يُهْبَطَ بنبي الله عيسى إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر، إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله)) والبُخْتُ: هي جِمَالٌ طوال الأعناق، والله أعلم.

علامات الساعة الكبرى (٣) - القيامة الكبرى (١)

عناصر الدرس

الخسوفات الثلاثة

والخسف لغةً: هو المكان النازل من الأرض، وخسف الله به الأرض؛ أي غاب به فيها، والخسف هو الذهاب في الأرض والغياب فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

وقد ورد أن من أشراط الساعة الكبرى، خسوفات ثلاثة تقع قبل قيام الساعة، وهذه الخسوفات الثلاثة تقع في ثلاثة أماكن من على سطح الكرة الأرضية، و وقد حددت الأحاديث النبوية أماكن وقوع هذه الخسوفات الثلاثة، ففي الحديث المروي عن حذيفة بن أسيد قال: ((اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: ما تذكرون؟))، وفي رواية لمسلم: ((ما تذّاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة فقال: إنها لن تقوم حتى ترى -أو ترون- قبلها عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم)).

فهذا نص الحديث الذي ورد فيه ذكر الخسوفات الثلاثة، وهي خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب.

وعن أم سلمة < أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((سيكون بعدي خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف في جزيرة العرب، قلت: يا رسول الله أيخسف بالأرض وفيها الصالحون؟! قال لها رسول الله ﷺ: إذا أكثر أهلها الخبث)).

وهذه الخسوفات الثلاثة الرأي الراجح فيها أنها لم تقع بعد، كغيرها من الأشراط الكبرى التي لم يظهر شيء منها إلى الآن، قال ابن حجر: يؤيد هذا الرأي وقد وجد الخسف في مواضع، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدرًا زائدًا على ما وجد، كأن يكون أعظم منه مكانًا أو قدرًا، وهذا مما يؤيد القول الذي يرى أن هذه الخسوفات الثلاثة لم تقع بعد، وإن كان بعض العلماء يرى أنها قد وقعت، لكن الصحيح أنها لم تقع بعد.

طلوع الشمس من المغرب

ومن أشراط الساعة الكبرى وعلاماتها: طلوع الشمس من المغرب:

والشمس آية من آيات الله تعالى، التي ذكرت في القرآن الكريم، وأمرنا بالنظر والتدبر والتفكر فيها، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: ((أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها)).

وقد وردت الأدلة على طلوع الشمس من مغربها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية:

أما الأدلة من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فقد ذهب

أكثر المفسرين إلى أن المراد في قوله تعالى: "ببعض الآيات" المذكورة في الآية، هو طلوع الشمس من مغربها.

أما الأدلة من السنة النبوية المطهرة فهي كثيرة، روى الشيخان عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا)).

وفي حديث آخر أنه قد روي عن أبي ذر > : ((أن النبي ﷺ قال يومًا: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئتِ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئتِ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا)).

فإذا طلعت الشمس من مغربها، فإنه يترتب على ذلك أمور:

عدم قبول الإيمان والتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها، فإنه لا يُقبل الإيمان ممن لم يكن قبل ذلك مؤمنًا، كما لا تقبل توبة العاصي، وذلك لأن طلوع الشمس من مغربها آية عظيمة مبهرة، يعاينها ويراها

من كان في ذلك الزمان، فيتحقق لديهم من الأهوال والإقرار والتصديق بالله وآياته ما يجعلهم يقرون ويعترفون ويتوبون ويؤمنون، وهذا كله لا ينفعهم؛ أي في هذا الوقت بعد طلوع الشمس من مغربها، فقد روي عن عائشة < أنها قالت: "إذا خرج أول الآيات، طرحت الأقلام وحبست الحفظة، وشهدت الأجسام على الأعمال"، والمراد في الحديث بأول الآيات هو طلوع الشمس من مغربها.

وقد روى الطبري أيضًا عن عبد الله بن مسعود > قال: "التوبة مبسوطة ما لم تطلع الشمس من مغربها، فقد جعل الله غاية قبول التوبة، هو طلوع الشمس من مغربها". وما ورد في جواز قبول التوبة بعد طلوعها من مغربها، ولكن بزمن بعيد عن هذه الظاهرة، فهو ضعيف لا يعتد به.

أما العلة في كون الإيمان والتوبة لا ينفع، إذا طلعت الشمس من مغربها؛ قال القرطبي -رحمه الله-: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حالِ من حضره الموت، من انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت.

ظهور الدابة

ومن أشراط الساعة الكبرى الثابتة: ظهور الدابة

فظهور دابة الأرض في آخر الزمان من أشراط الساعة الكبرى الثابتة بالكتاب والسنة. فمن الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]، فهذه الآية الكريمة صرحت بخروج الدابة، وأن ذلك يكون عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله

وتبديلهم دين الحق، فيخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم على ذلك، قال الإمام القرطبي: قال العلماء: معنى ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي وجب الوعيد عليهم، وذلك لتماديهم في العصيان والعقوق والطغيان وإعراضهم عن آيات الله، وتركهم تدبرها والنزول على حكمها، فكان ذلك أدى إلى أن تنتهي بهم في المعاصي إلا ما ينجع معه موعظة ولا يصرفهم عن غيهم تذكرة.

ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لمعهود البشر من الدواب، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم، وقد ذكرنا جملةً من الأحاديث التي عد فيها الرسول ﷺ من أشراط الساعة العظام خروج الدابة.

وأما الأدلة من السنة، فقول الرسول ﷺ: ((ثلاثٌ إذا خرجنا لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض))، وعنه ﷺ أنه قال: ((بادروا بالأعمال ستًّا)) وذكر منها دابة الأرض، وقال ﷺ في حديث آخر: ((تخرج الدابة ومعها عصا موسى # وخاتم سليمان # فتختم الكافر))، قال عفان: -أنف الكافر- بالخاتم أو بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر)).

من أي الدواب دابة الأرض؟

اختلفت الأقوال في تعيين دابة الأرض:

فقال العلماء: ما رواه القرطبي في أول الأقوال: أنها فصيل ناقة صالح، وهو أصحها والله أعلم.

وأما القول الثاني: أنها الجساسة المذكورة في حديث تميم الداري > في قصة الدجال، وسميت بالجساسة؛ لأنها تجس الأخبار للدجال.

والرأي الثالث: أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة، التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة.

والرأي الرابع: أن الدابة إنسان متكلم، يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقبعوا، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيا عن بينة.

أما الرأي الخامس: وهو أن الدابة اسم جنس لكل ما يدب، وليس حيوانًا مشخصًا معينًا يحوي العجائب والغرائب، ولعل المراد بها تلك الجراثيم الخطيرة، التي تفتك بالإنسان وجسمه وصحته. لكن هذا الرأي بعيد عن الصواب.

مكان خروج الدابة: اختلفت أقوال العلماء في تعيين مكان خروج الدابة:

فمنها: أنها تخرج من مكة المكرمة من أعظم المساجد، هذا هو أول الآراء.

وثانيها: أن لها ثلاث خرجات، فمرة تخرج في بعض البوادي ثم تختفي، ثم تخرج في بعض القرى، ثم تظهر في المسجد الحرام.

وهناك أقوال أخرى، غالبها يدور على أن خروجها من الحرم المكي.

عمل هذه الدابة:

إذا خرجت هذه الدابة العظيمة، فإنها تسِم المؤمن والكافر؛ فأما المؤمن فإنها تجلو وجهه حتى يشرق، ويكون ذلك علامة على إيمانه، وأما الكافر فإنها تختمه على أنفه، علامة على كفره والعياذ بالله تعالى، وجاء في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل: ٨٢]، وفي معنى هذا التكليم اختلف أقوال المفسرين:

فمنها: أن المراد تكلمهم كلامًا؛ أي تخاطبهم مخاطبة، ويدل على هذا قراءة أبي بن كعب > .

والرأي الثاني: أنها تجرحهم، ويؤيد ذلك قراءة تَكْلمهم بفتح التاء وسكون الكاف، من الكلم وهو الجرح، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس > أي تسِمهم وسمًا، وهذا القول يشهد له حديث أبي إمامة > أن النبي ﷺ قال: ((تخرج الدابة فتسِم الناس على خراطيمهم))، وروي عن ابن عباس أنه قال: كلًّا تفعل؛ أي المخاطبة والوسم، قال ابن كثير: وهو قول حسن ولا منافاة في ذلك، وأما الكلام الذي تخاطبهم به فهو قولها: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

هذا ما يتعلق بالحديث عن مبحث الدابة، وهي التي تظهر في آخر الزمان، وتكون من العلامات والأشراط الكبرى لقيام الساعة.

النار التي تحشر الناس

والآن نتكلم عن علامة أخرى من العلامات الكبرى، وهي: النار التي تحشر الناس:

ومنها -أي: من علامات الساعة- خروج النار العظيمة، وهي من آخر أشراط الساعة الكبرى، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة، وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة نار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم، فقد سبق أن ذكرنا الأحاديث، التي عدّد فيها الرسول ﷺ أشراط الساعة، وذكر أنها عشر، قال: ((وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم))، وفي رواية: ((ونار تخرج من قعر عدن، ترحل الناس))، وعن ابن عمر { قال: قال ﷺ: ((ستخرج نارٌ من حضرموت -أو من بحر حضرموت- قبل يوم القيامة تحشر الناس))، وروى الإمام البخاري عن أنس > أن عبد الله بن سلام -أو سلّام- لما

أسلم، سأل النبي ﷺ عن مسائل ومنها: ما أول أشراط الساعة؟ فقال له ﷺ: ((أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر من المشرق إلى المغرب)).

وأما كيفية حشرها للناس:

فعند ظهور هذه النار من اليمن، تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاثة أفواج: الأول: فوج راغبون طاعمون كاسون راكبون، والثاني: فوج يمشون تارة ويركبون أخرى، يعتقبون على البعير الواحد، كما في الحديث: ((اثنان على بعير وثلاثة على بعير)) إلى أن قال: ((وعشرة على بعير يعتقبونه)) وذلك من قلة الظهر يومئذ؛ أي من قلة البعير التي تنقلهم، الظهر أي ظهر البعير التي تنقلهم، والفوج الثالث: تحشرهم النار فتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلّف أكلته هذه النار، فقد أخبر الرسول ﷺ عن بيان كيفية حشر هذه النار للناس، فقال ﷺ: ((يُحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين وراهبين، اثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا)).

لكن هذا الحشر في الدنيا أم في الآخرة؟

والجواب: أن هذا الحشر في الدنيا، وهذا الحشر المذكور في هذه الأحاديث يكون في الدنيا، وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور، وقد ذكر الإمام القرطبي أن الحشر معناه الجمع، وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة؛ أما حشرا الدنيا، فالأول إجلاء بني النضير إلى الشام، والثاني حشر الناس قبل القيامة إلى الشام، وهي النار المذكورة هنا في هذا الحديث السابق، وكون هذا الحشر في الدنيا، هو الذي أجمع عليه جمهور

العلماء، كما ذكر ذلك الإمام القرطبي وابن كثير وابن حجر، وهو الذي تدل عليه النصوص كما تقدم بسطها.

وأما حشر الآخرة: فإنه قد جاء في الأحاديث أن الناس -مؤمنهم وكافرهم- يحشرون حفاة عراة غرلًا بُهمًا، ففي الصحيح عن ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ فقال: ((إنكم لمحشورون حفاة غرلًا، كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلق يُكسا يوم القيامة إبراهيم الخليل #))، قال ابن حجر: ومن أين للذين يبعثون بعد الموت عراة حفاة، حدائق حتى يدفعوها في الشوارف! فدل هذا على أن هذا الحشر يكون في الدنيا قبل يوم القيامة، ومن ذهب إلى خلاف ذلك فقد جانب الحق.

القيامة الكبرى: التعريف بها، وذكر أسمائها

ثم ننتقل في حديثنا بعد ذلك إلى الكلام عن القيامة الكبرى:

قال الإمام الطحاوي: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب.

أما تعريف القيامة:

القيامة: اسمٌ من أسماء اليوم الآخر، قال القرطبي: وهي في العربية مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب.

وسبب تسميتها، اختلف في تسميتها على أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها.

الثاني: لقيام الخلق من قبورهم إليها.

الثالث: لقيام الناس لرب العالمين.

الرابع: لقيام الروح والملائكة صفًّا.

أما أسماء يوم القيامة:

يوم القيامة، فقد ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب الكريم، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وقد وردت من ضمن أسماء يوم القيامة اليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأحيانًا يسميه الآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وسمي ذلك اليوم باليوم الآخر؛ لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

ومن أسماء يوم القيامة: الساعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، قال القرطبي: والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزءٍ من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءًا من يوم وليلة، اللذين هما أصل الأزمنة، وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، اللام التي تدخل على كلمة ساعة، فنقول: الساعة، فهي تعني الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آتٍ قريب، وإما أن تكون سُميت بها تنبيه على ما فيها من الكائنات العظام، التي تصهر الجلود، وقيل: إنها سميت بالساعة؛ لأنها تأتي بغتة في ساعة.

القيامة الكبرى (٢)

عناصر الدرس

تابع ذكر أسماء يوم القيامة

الأسماء الأخرى التي وردت في القرآن الكريم:

فمنها: يوم البعث، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [الحج: ٥]، قال ابن منظور: البعث الإحياء من الله تعالى للموتى، وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث.

ومنها: يوم الخروج، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤٢]، سمي بذلك؛ لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

ومن أسمائها: القارعة، قال تعالى: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١- ٣]، قال الإمام القرطبي: سُميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها، يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر؛ أي أهواله وشدائده.

ومنها: يوم الفصل، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢١]، وسمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده، فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥].

ومن أسمائها: يوم الدين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٤- ١٩]، والدين في لغة العرب الجزاء والحساب، وسُمي هذا اليوم بذلك؛ لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم.

ومن أسمائها: الصاخة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ [عبس: ٣٣]، قال القرطبي: قال عكرمة: الصاخة النفخة الأولى، والطامة النفخة الثانية، قال الطبري: أحسبه من صخ فلان فلانًا إذا أصمه، قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان:

أصم بك الناعي وإن كنت أسمعا ❖ ....

ومن أسمائها: الطامة الكبرى، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ [النازعات: ٣٤]، وسميت بذلك لأنها تطمّ على كل أمر هائل مفزع، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، قال القرطبي: الطامة الغالبة من قولك: طم الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء، كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء، قال الحسن: الطامة النفخة الثانية، وقيل: حين يسار أهل النار إلى النار.

ومن أسمائها: يوم الحسرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩] سمي بذلك الاسم لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وندمهم وتندمهم، أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١] واستمع إلى تحسّر الكفار عندما يحل بهم العذاب: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٨]، وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر، عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ويتحسر المؤمن في ذلك اليوم، بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

ومن أسمائها: الغاشية، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١]، سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمهم، ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

ومن أسمائها: يوم الخلود، قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [ق: ٣٤]، سمي ذلك اليوم بيوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلد، فالكفار -والعياذ بالله- مخلدون في النار، والمؤمنون بنعمة الله مخلدون في الجنان، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩].

ومنها: يوم الحساب: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] سمي ذلك اليوم بيوم الحساب؛ لأن الله يحاسب فيه عباده، قال القرطبي: معنى الحساب أن الله يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعَمه، ثم يقابل البعض بالبعض، فما يشفّ منها على الأخر، حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير والشر بالشر، جاء عن النبي ﷺ أنه قال: ((ما منكم أحدٌ إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان)).

ومنها: الواقعة؛ أي من أسماء يوم القيامة الواقعة، قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة: ١]، قال ابن كثير: سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، ومن حيث المعنى اللغوي من حيث وقوعها في الفعل الماضي، أصل وقع في لغة العرب كلفظ كان أو كلفظ وجد.

ومن أسمائها: يوم الوعيد، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠] لأنه اليوم الذي أوعد به عباده، وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة.

يوم الآزفة: قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨]، والساعة قريبة جدا، وكل آت فهو قريب وإن بعد مداه، والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قربًا.

ومنها: يوم الجمع، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧]، سميت بذلك لأن الله يجمع فيه الناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ [هود: ١٠٣].

ومنها: الحاقة، قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، وسميت بذلك كما يقول ابن كثير: لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، قال الإمام البخاري في صحيحه: هي الحاقة؛ لأن فيها الثواب، وحواق الأمور الحقة، والحاقة واحد. وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري: هذا أخذه من كلام الفراء، قال في (معاني القرآن): الحاقة القيامة، سميت بذلك؛ لأن فيها الثواب وحواق الأمور، ثم قال: الحقة والحاقة كلاهما بمعنى واحد، قال الطبري: سميت الحاقة؛ لأنها تُحق فيها، وهي كقولهم: ليل قائم، وقال غيره: سميت الحاقة؛ لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار، وقيل: لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء.

ومنها: يوم التلاق، قال تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥]، قال ابن كثير: قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده، قال ابن زيد: يلتقي فيه العباد، قال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل الأرض والسماء والخالق، وقال آخرون: يلتقي فيه الظالم والمظلوم، وقد يقال: إن يوم التلاق يشمل هذا

كله، ويشمل أن كل عاملٍ سيلقى ما عمله من خير وشر، كما قاله بعض العلماء الآخرون.

يوم التناد: قال تعالى حاكيًا نصيحة آل فرعون قومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢]، سمي بذلك لكثرة ما يحصل فيه من نداء في ذلك اليوم، فكل إنسان يدعى باسمه للحساب والجزاء، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء.

ومنها: يوم التغابن، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩]، سمي بذلك؛ لأن أهل الجنة يغبتون أهل النار؛ إذ يدخل هؤلاء الجنة فيأخذون ما أعد الله لهم، ويرثون نصيب الكفار من الجنة.

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماء أخرى غير ما ذكرناه، ولكن هذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصًا، فقد سموه بيوم الصدر أخذًا من قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا ﴾ [الزلزلة: ٦]، ويوم الجدال أخذًا من قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه ﴿ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر: ٩]، و﴿ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، و﴿ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ [هود: ١٠٣]، و﴿ يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ١٠]، و﴿ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٥].

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المآب ويوم العرض ويوم الخافضة والرافعة ويوم القصاص ويوم الجزاء ويوم النفخة ويوم الزلزلة ويوم الراجفة ويوم الناقور ويوم التفرق ويوم الصدع ويوم البعثرة ويوم الندامة ويوم الفرار، ومنها أيضًا ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩]، ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿ يَوۡمَ

﴿ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣]، ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر: ٥٢]، ﴿ يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥]، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨]، يوم ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]، يوم ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١]، يوم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٩].

ويضيف بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر، بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق، واختلاف الأقدام والخزي والهوان والذل والافتقار والصغار والانكسار، ويوم الميقات والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء.

والسر في كثرة أسمائها:

يقول القرطبي: وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا نهج كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم وله نظائر؛ فالقيامة لما عظم أمرها وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه الكريم بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة.

النفخ في الصور

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه، يعج بالحياة والأحياء، الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف، وسيبقى حالهم كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يهلك الله فيه جميع الأحياء إلا من يشاء، قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]، وعندما يأتي هذا اليوم ينفخ في الصور، فتنهي هذه النفخة الحياة في الأرض والسماء.

والنفخ لغة: نفخ بفمه ينفخ نفخًا، إذا أخرج منه الريح، ومنه نفخ النار، والنفخ في الشراب وغير ذلك، وهي نفخة هائلة مدمرة، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء، ولا يقدر على العودة إلى أهله وخلانه.

والصور في اللغة: القرن، وقد سئل النبي ﷺ ففسره بما تعرفه العرب من كلامها، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور، قال -أي: ﷺ: الصور قرن ينفخ فيه))، وأما النافخ في الصور فهو إسرافيل أحد الملائكة الكرام، الذين يحملون العرش.

وتعريف النفخ في الصور في الشرع: هو نفخ إسرافيل في القرن الذي التقمه، ووكِّل إليه النفخ فيه وقت قيام الساعة.

واليوم الذي يكون فيه النفخة:

ففي حديثٍ أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة، وفيها يبعث العباد أيضًا، فعن أوس بن أوس قال: قال ﷺ: ((إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ)).

أما الأدلة على النفخ في الصور:

فقد دل على النفخ في الصور، أدلة من الكتاب والسنة والإجماع: فمن الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وأخبرنا الباري -جل وعلا- في الآيات السابقة أن بعض من في السموات ومن في

الأرض لا يصعقون عندما يصعق من في السموات ومن في الأرض، وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فقد ذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة؛ لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أرواح فيها فلا يموتون أصلًا، وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وذهب الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور العين والولدان، وغيره من الآراء.

وروى الإمام البخاري أيضًا عن أبي هريرة بلفظ: ((إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش؛ فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة؟)).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم، التوقف في تعيين الذين استثناهم الله؛ لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد، قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم -أي: في تعيين الذين استثناهم الله، من الصعقة في يوم القيامة- خبر صحيح والكل محتمل، وقال ابن تيمية: وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين؛ فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله؛ فإن الله أطلق الاستثناء في كتابه الكريم؛ فقال: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والنبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟، وهذا هو الرأي الراجح والأسلم في مسألة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وما عدد النفخات التي ينفخها إسرافيل في الصور؟

عدد النفخات التي ينفخ فيها إسرافيل في الصور هما نفختان:

نفخة الصعق: وهي النفخة التي ينفخ فيه فيفزع الناس ويصعقون، ذلك أن الله ﷻ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا، أمر إسرافيل # أن ينفخ في الصور؛ فيصعق كل

من في السموات والأرض إلا من شاء الله، وتصبح الأرض صعيدًا جرزًا، والجبال كثيبًا مهيلًا، ويحدث كل ما أخبر الله في كتابه الكريم، لاسيما في سورة الانفطار وسورة التكوير، وتسمى هذه النفخة "نفخة الصعق"، و"نفخة الفزع"، وتسمى "بالراجفة"، وتسمى "بالصيحة".

أما ثاني النفختان فهي: نفخة البعث: وهي النفخة التي يقوم الناس فيها من الأجداث أحياءً لرب العالمين، فقال ﷺ: ((ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا -الليت صفحة العنق- ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يُنزل الله مطرًا كأنه الطل أو الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون))، وتسمى هذه النفخة "بالأخرى" وتسمى "بالرادفة".

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النفخات ثلاث، هي نفخة الفزع بدون الصعق، ونفخة الصعق، ونفخة البعث والقيام لرب العالمين، فمن فسر الفزع بالصعق فهما اثنتان عنده، ومن فسر الفزع بغير الصعق فهي ثلاث.

القيامة الكبرى (٣)

عناصر الدرس

التعريف بالبعث والنشور

المراد بالبعث: هو المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يوم المعاد والنشور، وكلمة النشورِ مرادفة لمعنى البعثِ، يقال: نُشر الميت نشورًا إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله، أي: أحيَاهُ، فإذا شاء الحق -تبارك وتعالى- إعادة العباد وإحيائهم، أمر إسرافيل فنفخ في الصور لتعود الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد حثنا الحق -تبارك وتعالى- عن مشهد البعث العجيب الغريب، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١- ٥٣].

وقد جاءت الأحاديث مخبرة، أنه يسبق النفخة الثانية في الصور، نزول ماء من السماء فتنبت منه أجساد العباد، ففي (صحيح مسلم) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثم يُنفخ في الصورِ، فلا يسمعه أحد، إلا أصغَى لِيتًا ورفع لِيتًا))، ومعنى "ليتًا" لات فلانًا حقه ليتًا: نقصه إياه، والليت صفحة العنق، وقوله: ((إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)).

وأما البعث في الشرع: فهو المعاد الجسماني، وإحياء الأموات يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم، يعيدُ اللهُ فيه العباد أنفسهم، ولكنهم يُخلقون خلقًا مختلفًا شيئًا ما، عما كانوا عليه في الحياة الدنيا، حتى يتناسب ذلك مع الحياة التي سيعيشونها في الآخرة، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء بعد هذه الحياة، قال تعالى:

قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والإيمان بالبعث داخلٌ ضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب عمومًا، وإنكار البعث كفر بالله ﷻ ومنكر البعث كافر بالله -تبارك وتعالى- وبرسله وبكتبه وباليوم الآخر، وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فقوله: لن يعيدني الله كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادتِهِ، وأما شتيمته إياي: فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد)).

وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ، ففي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مُشَفَّع)).

ثم يأتي حشر الخلائق جميعًا إلى الموقف العظيم، فقد سمى الله يوم الدين بيوم الجمع؛ لأن الله يجمع العباد فيه جميعًا، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وكما أن قدرة الله محيطة بكل عباده، تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى منهم أحد، ولا يضل منهم أحد، ولا يشذ منهم أحد، فقد أحصاهم خالقهم -تبارك وتعالى- وعدهم عدًّا، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعًا، الإنس والجن والملائكة، ولا حرج على من فهم منها، أن الحشر يتناول كذلك البهائم، وحكي عن القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم، ورجح أن ذلك كائنٌ للأخبار الصحيحة في ذلك.

قال القرطبي: واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قِصَاصِ بعضِهَا من بعْض، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها، قاله الضحاك، وروي عن ابن عباس في رواية أخرى: أن البهائم تحشر وتبعث، وقال أبو ذر، وأبو هريرة، وعمرو بن العاص وغيرهم: وهو صحيح، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كُلَّهُم يوم القيامة؛ البهائم والطير والدواب وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، الجماء التي ليس فيها لها قرون، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠].

صفة حشر العباد:

الله ﷻ يحشر العباد حفاةً عراةً غرلًا، أي: غير مختونين، ففي (صحيح البخاري) ومسلم، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: ((إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾)).

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، قالت: يا رسول الله الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)).

وقد جاء في بعض النصوص: أن كل إنسان يُبعث في ثيابه التي مات فيها، وإنما يبعث على الحالة التي مات عليها، من الإيمان والكفر، واليقين والشك، كما يُبعث على العمل الذي يعمله عند موته، فالذي يموت وهو مُحْرِمٌ يبعث يوم القيامة ملبيًا، ففي (صحيح البخاري) عن عبد الله بن عباس، قال: إن رجلًا كان مع النبي ﷺ فوقصته ناقته، -أي: أسقطته فكسرت عنقه وهو محرم فمات، فقال ﷺ: ((اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا)).

شفاعة النبي ﷺ

الشفاعةُ لغةً: الوسيلة، والطلب، وعرفًا: سؤال الخير من الغيرِ للغيرِ، أن تسأل خيرًا من رجل لرجل آخر، وشفاعة المولى عبارة عن عفوه ﷻ، قال صاحب (العقيدة الطحاوية): والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار.

أنواع الشفاعة:

هل الشفاعة واحدة أم الشفاعة لها أنواع متعددة؟

فنقول: أما أنواع الشفاعة منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه كالمعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

فالنوع الأول من الشفاعة: وهو الشفاعة الأولى وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين.

والنوع الثاني: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

النوع الثالث من الشفاعة: في أقوام آخرين، قد أمر بهم إلى النار فيشفع فيهم ألا يدخلوها.

والنوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها، فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما في حديثه أنه قال: ((أنا أول شفيع في الجنة)).

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار، فيخرجون منها، قال ﷺ: ((شفاعَتِي لأهلِ الكبائِرِ مِن أُمَّتِي)).

وقال ﷺ: ((من يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء))، وفي الصحيح من حديث أبي سعيد > مرفوعًا، قال: ((فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، فلم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضةً من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط)).

ثم إن الشفاعة على ثلاثة أقوال من حيث آراء المخالفين فيها:

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله، كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

الثاني: المعتزلة والخوارج، أنكروا شفاعةَ نبينَا ﷺ وغيرِهِ من أهل الكبائر.

الثالث: قول أهل السنة والجماعة: فهم يقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعةِ غيره، لكن لا يشفع أحدٌ حتى يأذن الله له، ويحدّ له حدًّا، كما في

الحديث الصحيح حديث الشفاعة: ((أنهم يأتون آدم ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى # : اذهبوا إلى محمد ﷺ فإنه عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأذهب؛ فإذا رأيت ربي خررت له ساجدًا، فأحمد ربي بمحامد يفتحها عليَّ، لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد، ارفع رأسك، وقُل يُسْمع واشفع تشفع، فأقول: ربي أمتي؛ فيحدّ لي حدًّا فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد فيحد لي حدًّا)) ذكر هذا ثلاث مرات ﷺ.

والأمر في حديث الشفاعة يحتاج أن نذكر حديث أبي هريرة > قال: ((أوتي رسول الله ﷺ بلحمٍ فَدُفِعَ إليه مِنْهَا الذراع، كانت تعجبه فنهس منها نهسةً، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوح فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعدَهُ مثله، ، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي نفسي،

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنَا؟ فيقول: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته، وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، اذهبوا إلى غيري؛ اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ﷻ ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه، ما لم يفتحه على أحدٍ قبلي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سَلْ تُعْطَى، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، ثلاثًا، فيقال: أدْخِل من أمتك ما لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، لَمَا بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)).

والحديث يذكر: ((والذي نفسي بيده لما بين مصراعين)) المصراع من الباب الشطر، والباب له مصراعان، وهو ما نسميه "بدرفة الباب.

الحساب

ما الحساب؟ وتعريف الحساب في اللغة؟

الحساب لغة: مأخوذ من مادة حسب، وهي تدل على عدة معان منها العد والإحصاء.

والحساب في الشرع: هو إطلاع اللهِ عباده على أعمالهم يوم القيامة، وإنبائهم بما قدموهُ من خيرٍ وشر.

والأدلة على الحساب الذي يجريه الله ﷻ يوم القيامة، واردة من الكتاب ومن السنة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وكان النبي ﷺ يقول في بعض صلاته: ((اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا، فقالت عائشة > : ما الحساب اليسير، قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه))، وفي الصحيحين عن عائشة > أن النبي ﷺ قال: ((من حوسب عذب، قالت عائشة: فقلت: أوَليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨]، قالت: فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)).

أما الإجماع من الأمة، فقد أجمعت الأمة الإسلامية على ثبوت الحساب يوم القيامة، والحساب عامّ لجميع الناس، إلا من استثناهم النبي ﷺ كما في حديث السبعين ألفًا.

الميزان الذي يوزن الله فيه الأعمال:

الميزان في اللغة: أصله من موزان، وانقلبت الواو ياء، لكسر ما قبلها، وجمعه موازين، والميزان: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تُقَدَّرُ به الأشياء خفةً وثقلًا.

والميزان في الشرع: هو ما يضعُه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد، فمن أدلةِ الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، وقال ﷺ: ((كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)).

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك، والميزان الذي تُوزَن بِهِ الأعمال، هو ميزان حسيٌّ حقيقي له كفتان، وفي بعض الروايات: "ولسان"، والذي يوزن فيه أعمال العباد، والميزان عند أهل السنة ميزانٌ حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في هذا القول المعتزلة وقلة قليلةٌ من أهل السنة.

قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلةً؛ ليكونوا على أنفسهم شهداء.

وقال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تُقَوَّم بأنفسها، قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: "أن

الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا فيزنها"، وقد ذهب بعض السلف: إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعَزَا الطبري القول بذلك إلى مجاهد، والراجح: ما ذهب إليه الجمهور، وهو: أن الميزان ميزان حقيقي توزنُ بِهِ أعمالُ العباد.

الحـــوض

الحوض لغة: هو مصدر الفعل حاض، أي: جمع، والحوض مجتمع الماء، وجمعه أحواض وحياض، وأما الحوض في الشرع فهو حوض الماء النازل من الكوثر، في عرصات القيامة للنبي ﷺ ودل على الحوض الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وقال ﷺ: ((إني فرطكم على الحوض، من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم)).

وعنه ﷺ: ((أتيتُ على نهرٍ حافتَاهُ قباب اللؤلؤ مجوفًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر))، وقال ﷺ: ((حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، ومن يشرب منها فلا يظمأ أبدًا)).

وفي حديث آخر: ((إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثرُ من عدد النجوم، وإني لأصدُّ الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد من الأمم -السيما: العلامة- تردون عليَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ)).

والذين يُذادون عنه كما ورد في القرطبي، قال علماؤنا -رحمهم الله-: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصنافِ أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدِّلُون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم، وطمس الحق وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، والمستخَفِّون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء والبدع، كل هؤلاء يُذادون عن حوض رسول الله ﷺ ولا يشربون منه.

الجنـــــــة والنـــــــار

الجنة لغة: هي البستان الكثير الأشجار، فهي كل بستان ذي شجرٍ كثيرٍ يستر بأشجارِهِ الأرض، والجنة في الشرع هي دار النعيم، التي أعدها الله في الآخرة للمؤمنين المتقين، المخلصين لله المتبعين لرسله.

وقال الراغب الأصفهاني: وسميت الجنة، إما تشبيهًا بالجنة في الأرض، وإن كان بينهما بَون، وإما لستره نعمها عنا، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، هذا هو تعريف الجنة.

تعريف النار:

فالنار في اللغة تقال للّهيب الذي يبدو للحاسة، وللحرارة المجردة، ولنار جهنم ولنار الحر، وتطلق النار في الشرع على دار العذاب، التي أعدها الله في الآخرة للكافرين، الذين كفروا بالله وعصوا رسله.

الجنة والنار المخلوقتان

عناصر الدرس

صفة النار، وبُعد قعرها

الجنة والنار المخلوقتان:

والمقصود بأنهما مخلوقتان، أي: مخلوقتان الآن، وقد خلقتا بالفعل قال الطحاوي في (العقيدة): والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا، ولا تبيدان؛ فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلًا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه ومن شاء منهم إلى النار عدلًا منه، وكل يعمل لما قد خلق له، أو فرض له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد.

وقال شارح (الطحاوية) في شرحه لهذا النص: أما قوله: إنّ الجَنّة والنّار مخلوقتان فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، وذهب بنا المعتزلة والقدرية؛ فأنكرت ذلك، وقال: بل ينشأهما الله يوم القيامة.

والأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على أنهما مخلوقتان قال تعالى عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى عن النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ [النجم: ١٣- ١٥].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ((إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهلِ النار، يقال -أي: يقال له-: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))

وفي حديث البراء بن عازب: ((يُنادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وأفتحوا له بابًا من الجنة، قال: فيأتيه من روحها الطيب)).

وفي الصحيحين واللفظ للإمام البخاري عند عبد الله بن عباس قال: ((انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ)) فذكر الحديث وفيه: ((قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيتُ النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثرَ أهلِهَا النساء قالوا: بما يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قال: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، ولو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا؛ قالت: ما رأيتُ خيرًا قط)).

وفي (صحيح مسلم) من حديث أنس: ((وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيتُ لضحكتم قليلًا، وبكيتم كثيرًا، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيتُ الجنةَ والنارَ)) وعن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها؛ فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال فنظر إليها ثم رجع، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب وانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا ثم رجع، فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها؛ فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجع، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)).

صفة النار:

اختلف العلماء في موقع النار الآن؛ فقال بعضهم: هي في الأرض السفلى، وقال آخرون: هي في السماء، وقال آخرون بالتوقف في ذلك، وهذا الرأي بالتوقف هو الصواب. لعدم ورود نصٍّ صريحٍ صحيحٍ يحدد موقعها، ومن الذين توقفوا في هذا الحافظ السيوطي، قال: وتقف عن النار، أي: تقول فيها بالوقف، أي: محلها حيث لا يعلمه إلا الله، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك.

سعة النار وبعد قعرها:

النّار شاسعة واسعة بعيد قعرها، مترامية أطرافها، يدُلّنا على هذا أمورٌ كثيرة، الذين يدخلون النار أعداد لا تُحصى ومع كثرة عددهم؛ فإن خلق الواحد فيهم يضخم حتى يكون ضرسه في النار مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام، ومع ذلك؛ فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين على عظم خلقهم، ويبقى فيها متسع لغيرهم، وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في كتابه الكريم فقال: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: ((لا تزال جهنمُ يلقى فيها وتقول: هل من مزيدٍ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمَهُ؛ فينزوي بعضُهَا إلى بعض فتقول: قط قط بعزتك وكرمك)). وما يدل على بعد قعرها أيضًا: أن الحجر إذا ألقي من أعلاها احتاج إلى آماد طويلة حتى يبلغ قعرها ففي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة > قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً -أي: سقطةً- فقال النبي ﷺ: أتدرونَ ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجرٌ رُمِيَ به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النارِ إلى الآن)).

ومما يدل على سعتها: كثرة العدد الذي يأتي بالنار من الملائكة في يوم القيامة؛ فقد وُصف الرّسول ﷺ مجيء النار في يوم القيامة الذي يقول الله فيه: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر: ٢٣]، فقال: ((يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك)) رواه مسلم.

وأما الحديث عن دركات النار: فالنّار متفاوتة في شدةِ حَرِّهَا، وما أعده الله من العذاب لأهلها؛ فليس درجةً واحدةً، وقد قال الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد تُسمى النار درجات أيضًا؛ ففي سورة "الأنعام" ذكر الله أهل الجنة والنار ثم قال: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال -عز من قائل-: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣].

وقد ورد عن بعض السلف أن عصاة الموحدين ممن يدخلون النار يكونون في الدرك الأعلى، ويكون في الدرك الثاني اليهود، وفي الدرك الثالث النصارى، وفي الدرك الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب وفي السابع المنافقون.

ومن صفة النار: أنّ لها أبوابًا: فقد أخبر الحق أن للنار سبعة أبواب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤]. وعندما يرد الكفار النار تفتح أبوابها، ثم يدخلونها خالدين قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

هل النار خالدة لا تبيد أم أنها تفنى؟

وقد ذهب العلماء إلى رأي فنقول: النار خالدة لا تفنى ولا تبيد، كما قال الطحاوي في عقيدته: والجنة والنار مخلوقتان لا تبيدان، ولا تفنيان، ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك.

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن النار خالدة لا تبيد، وأهلها فيها خالدون، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين، أما الكفرة والمشركون: فهم فيها خالدون، وأما القول الثاني الذي يقول: بفناء النار، وهم المخالفون لمذهب أهل الحق، وأهل السنة في هذه المسألة سبع فرق:

أولها: الجهمية القائلون: بفناء النار، وفناء الجنة أيضًا.

الثاني: الخوارج والمعتزلة يقولون: بخلود كل من يدخل النار، ولو كانوا من أهل التوحيد. وسر هذا القول: أن الخوارج يكفرون المسلمين بالذنوب؛ فكل من ارتكب ذنبًا فإنه كافر خالدًا مخلد في نار جهنم. والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنبًا فهو في منزلة بين المنزلتين فلا هو مؤمن ولا كافر، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا، ولكنه في الآخرة مخلدٌ في نَارِ جهنم.

الرأي الثالث: اليهود الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقت محدود، ثم يخلفهم غيرهم فيها، وقد أكذبهم الله في زعمهم، ورد عليهم مقالتهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرأي الرابع: قول إمام الاتحادية، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب طبائعهم نارية؛ يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم، قال ابن حجر في (الفتح): وهذا قول بعض من ينسب إلى التصوف من الزنادقة.

القول الخامس: قول من زعم أن أهلها يخرجون منها، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد.

القول السادس: وهو قول ينسب إلى أبي هذيل العلاف من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى، ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم قال بذلك؛ لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها؛ فخالف الأدلة الصريحة القطعية الثبوت بمقاييس عقلية باطلة.

القول السابع: قول من قال: إن الله يفرغ منها ما يشاء كما ورد في الأحاديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها؛ فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

وهنا -بعد أن ذكرت القائلون بفناء النار- نتعرض لتحقيق قول ابن تيمية، وقول ابن القيم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم رَأَيَا القول الذي يقول: إنّ الله يُخرج منها ما يشاء، كما ورد في الأحاديث ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها؛ فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

وقد رَدّ على أقوالهم ابن حجر العسقلاني، وقد مال بعضُ المتأخرين إلى هذا القول، ونصره بعدة أوجه من جهة النظر، وهو مذهب مردود، وقد أطنب الإمام السبكي الكبير في بيان ضعفه؛ ولذلك سوف أذكر أمورًا في الرد على القائلين بفناء النار. وتعتبر مناقشة لرأي شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

الأول: أن هذا القول قول باطل، وإن ذهب إليه علمان من أعلام الإسلام؛ حيث إنه وردت أدلة كثيرة، ونصوص كثيرة تدل على خلود النار؛ وهي نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة، ونقل إجماع الأمة على خلود النار.

القول الثاني: أنه لا يجوز، ذم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بسبب هذه المقالة؛ وذلك لأنهما مجتهدان مؤجران مثابان، ولو علما الحق في خلاف قولهما لاتبعاه، وقد خَالف بعضُ الصحابة، وبعض العلماء في آراء، فيذكر عن عمر بن الخطاب > كان يذهب إلى أن المسافر إذا لم يجد الماء لا يتيمم ولا يصلي. وقد اتفقت الأمة على خلاف ذلك.

والإمام مالك كان يرى: أن البسملة"بسم الله الرحمن الرحيم" ليست آية من كتاب الله، وقد أجمعت الأمة على أن ما بين الدفتين قرآن، وقال أقوام بعدم زيادة الإيمان ونقصانه مع كونه مثبتٌ بالكتاب والسنة صريح فيهما، والإجماع منعقد عليه.

القول الثالث: أنه ينبغي أن ننبه إلى أن قول ابن تيمية، وابن القيم جاء في مجموع فتاوى شيخ الإسلام يخالف الرأي الأول بفناء النار، وإذا كان الأمر كذلك أي: أنّ لهما قولان، فلا يجوز أن نجزم بأن القول بفناء النار هو قولهما، ما لم يعلم أنه القول الأخير لهما. وإذا لم يُعلم القول الأخير؛ فالأولى التوقف بالنسبة لأحد المذهبين إليهما.

كثـــرة أهـــل النـــار

جاءت النصوص كثيرة وافرة دالة على كثرة من يدخل النار من بني آدم وقلة من يدخل الجنة منهم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]. وقال الحق -تبارك وتعالى- لإبليس: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥] فكل من كفر فهو من أهل النار من أهل النار على كثرة من كفر من بني آدم.

ومما يدل على كثرة الكفرة والمشركين الذين رفضوا دعوة الرسل: أن النبي من الأنبياء على مر العصور من آدم إلى سيدنا محمد ﷺ يأتي يوم القيامة، فمنهم من معه الرهط، ومنهم من معه الجماعة دون العشرة، والنبي ومعه الرجل والرجلان، بل أن بعض الأنبياء يأتي وحيدًا، لم يؤمن به أحد.

ففي (صحيح مسلم) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ((عُرِضَت عليَّ الأمم؛ فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد))، وقد جاءت نصوص كثيرةٌ تدل على أنه يدخل في النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف، وواحد فقط هو الذي يدخل الجنة.

فمن ذلك ما روي عن البخاري في صحيحه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك، وسعديك، والخير في يديك، ثم يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا؛ فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل، ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة، قال: فحمدنا الله وكبَّرنا، ثم قال: والذي نفسي بيدِهِ إنِّي لأطمع أن تكونوا شطرَ أهل الجنة، أن مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أو كالرقعة في ذِرَاعِ الْحِمَارِ)).

عظم خلق أهل النار:

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ قال: ((مَا بَيْنَ

مَنْكِبَي الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ)) وعن أبي هريرة في حديث آخر: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ضرس الكافر -أو ناب الكافر- مِثْلُ أُحُدٍ، أي: جبل أحد، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاَثٍ)).

ثم نأتي إلى الحديث عن شدة ما يكابده أهل النار من عذاب؛ فالنار -أعاذنا الله منها- عذابها شديد، وفيها من الأهوال، وألوان العذاب ما يجعل الإنسانَ يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٦].

وفي (صحيح مسلم) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((يؤتى بأنعم أهلِ الدنيا من أهل النار من القيامة، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ)).

إن شدة النار، وهولها تفقد الإنسان صوابه، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار، وأنى له النجاة: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج: ١١- ١٦]. وهذا العذاب الهائل المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم، وألم مستمر أعاذنا الله وإياكم من عذاب النار ووقانا من عذابها وألهمنا ووفقنا إلى طاعته وإلى عبادته الصحيحة حتى نكون من الناجين.

دخول المؤمنين الجنة

عناصر الدرس

وصف الجنة ونعيمها وأسباب دخولها

دخول المؤمنين الجنة:

الجنة هي دار الجزاء العظيم، والثواب الكبير الجزيل، الذي أعده الله للمؤمنين من أهل طاعته، والجنة نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به ﷺ يحير العقل ويذهله؛ لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه؛ ولذا كان الدخول إلى الجنة، والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى.

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقال أيضًا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وفي الحديث القدسي: ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))، ثم قال ﷺ: ((اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾)) وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بما في متاع الدنيا؛ فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخر تافهٌ حقيرٌ لا يساوي شيئًا، قال ﷺ: ((مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)) والسوط بالطاء الذي يضرب به.

ولا شَكَّ أنّ سَعَادة المؤمنين لا تعادلها عندما يساقون معززين مُكَرَّمِينَ سعادة، فيدخلون زمرًا زمرًا، إلى جنات النعيم حتى إذا ما وصلوا إليها فتحت أبوابها، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنئونهم بسلامة وصولهم للجنة، بعدما عانوه من الكربات، وشاهدوه من الأهوال، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وعقائِدكم، فأصبحت نفوسك زاكيةً، وقلوبكم طاهرةً فبذلك استحققتم الجنات.

الشفاعة في دخول الجنة:

فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة: أن المؤمنين عندما يطول عليهم الموقف في يومِ الجزاء يطلبون من الأنبياء أن يستفتحوا ربهم باب الجنة، فكلهم يتمنع ويتأبى. ويقول: لستُ لها حتى يبلغ الأمر نبينا محمدًا ﷺ فيُشفع في ذلك فيشفع، قال ﷺ: ((يَجمع الله -تبارك وتعالى- الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ)) إلى آخر الحديث الذي ينتهي فيه إلى شفاعة الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ وهو الحديث المسمى بحديث الشفاعة الطويل.

الأعمال التي استحق بها أهل الجنة الجنة:

أصحابُ الجنة هم المؤمنون الموحدون؛ فكل من أشرك بالله، أو كفر به، أو كذب بأصلٍ من أصول الإيمان؛ فإنه يُحرم من الجِنَان، ويكون في النيران تحت العذاب الشديد، والقرآن يذكر كثيرًا أن أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين

يعملون الصالحات. وفي بعض الأحيان الأخرى: يُفَصّل الأعمال الصالحة التي يَسْتَحِقُّ بها صاحبها الجنة.

ومن المواضيع التي نص القرآن الكريم على استحقاق أهل الجنةِ الجنةَ: الإيمان بالله تعالى، والأعمال الصالحة التي أتى بها الشرع الكريم، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

الأمر الثاني: وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة بالإيمان والإسلام، يقول تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٠].

وأحيانًا أخرى يذكر القرآن الكريم أنهم استحقوها -أي: استحقوا الجنة- لأنهم أخلصوا دينهم لله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٣].

الأمر الثالث: يذكرُ القرآنُ الكريم استحقاقهم للجنة لقوة ارتباطهم بالله، ورغبتهم الشديدة إليه ﷻ وعبادتهم المُخلصة لله ﷻ كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٧].

الأمر الرابع: من الأعمال التي يؤجر المرء عليها، وهي تدخله الجنة: الصبر والتوكل على الله ﷻ يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

الأمر الخامس: وهي الأسباب التي تدخل الجنة: الاستقامة على الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

الأمر السادس: وهو الإخبات إلى الله تعالى: كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣]، وخبت بمعنى أخبت الرجل إخباتًا خضع لله، وخشع قلبه، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤]. ومن ذلك أيضًا: الخوف من الله تعالى: قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

ومن الأسباب التي تُدخل المؤمن الجنة: بغض الكفرة المشركين وعدم موادتهم، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي سورة الرعد ذكر ﷻ أنهم استحقوها -أي: استحقوا دخول الجنة- باعتقادهم، إنّما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق، وبوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم لله، وخوفهم من سوء الحساب، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والإنفاق سرًّا وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤].

وفي مطلع سورة المؤمنين حُكم الله ﷻ أن الفلاح إنما هو للمؤمنين، ثم بين الأعمال التي تؤهلهم للفلاح، وأعلمنا أن فلاحهم، إنما يكون بإدخالهم الفردوس خالدين فيها أبدًا، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

وقد حَدّثنا الرَّسولُ ﷺ عن ثلاث أعمالٍ عَظيمة يستحقُّ بها أصحابها الجنة؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي أنّ الرسول ﷺ قال: ذات يوم في خطبة: ((وأهل الجنة ثلاث: ذو سلطانٍ مقسط، متصدقٍ موفقٍ، ورجلٌ رحيم، رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيفٍ متعفف ذي عيال))

الجنة ليست ثمنًا للعمل، ولا يمكن أن ينالها المرء بأعماله التي يعملها وإنما تنال برحمة الله وفضله؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ((لن يدخل أحدًا منكم عملُهُ الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ منه بفضلٍ ورحمة)). وقد يلتبس أن النصوص قد تشعر بأن الجنة ثمن للعمل، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]. وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ولكن في حقيقة الأمر ولا تعارض بين الآيات، وما دَلّ عليه الحديث؛ فإن الآيات تدل على أن الأعمال سببٌ لدخول الجنة، وليست ثمنًا لها، والحديث

نفى أن تكون الأعمال ثمنًا للجنة. وقد ضل فيها فرقتان، الجبرية التي استدلت بالحديث على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال؛ لأنه لا صنع للعبد في عمله، وكذلك ضلت القدرية الذين استدلوا بالآيات.

وقد فصل وحكم صاحب شارح (الطحاوية) في هذه المسألة، فقال: وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضل فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهلَ السنة، وله الحمد والمنة؛ فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات؛ فالمنفي في قوله ﷺ: ((لن يدخل الجنة أحد بعمله)) باء العوض بعمله، أي: الباء التي تدخل على بعمله باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة: أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمة الله، وفضله.

والباء التي في قوله: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٤]. وغيرها باء السبب، أي: بسبب عملكم، والله تعالى هو خالقُ الأسباب والمسببات، فرجع الكلُّ إلى محضِ فضلِ اللهِ ورحمتِهِ.

حكم من توفوا قبل التكليف من أطفال المؤمنين والكافرين

أطفال المؤمنين الذين لم يبلغوا الحلم هم في الجنة -إن شاء الله تعالى- بفضل الله ورحمته، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور: ٢١].

واستدل علي بن أبي طالب بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] على أن أطفال المؤمنين في الجنة؛ لأنهم لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم، أما أطفال المشركين: فقد بوب الإمام البخاري في صحيحه بابًا بعنوان، باب: ما قيل في

أولاد المشركين. وأورد فيه حديثَ ابن عباس } قال: ((سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين؛ فقال: الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين))، وحديث أبو هريرة > قال: ((سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وحديث أبي هريرة > قال: قال النبي ﷺ: ((كل مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجِّسَانِهِ، كمثل البهيمة تنتج البهيمةَ هل ترى فيها جدعاء)) و الجدع: قطع الأنف، وقطع الأذن أيضًا، وقطع اليد، والشفة، وبابه قطع.

والإمام البخاري -رحمه الله- كما يقول ابن حجر: أشعر بهذه الترجمة أنه كان متوقفًا في أولاد المشركين، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم من صحيحه بما يدل على اختيار القول القائل: أنهم في الجنة، واحتجوا أيضًا بقوله ﷺ: ((أطفال المشركين خدم أهل الجنة))، والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم، وهو اختيار أبي الفرج الجوزي، وقال النووي في هذا المذهب: وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

واحتجّ بالأدلة التي ساقها الإمام البخاري وغيره، وهذا القول هو الذي رجحه الإمام القرطبي، وقد وافق عليه الإمام القرطبي بين النصوص التي يظهر منها التعارض، وأراد الإمام القرطبي: أنْ يُوفق بين النصوص التي يظهر منها التعارض في هذا الموضوع؛ فقال: بأن الرسول ﷺ قال أول الأمر: ((هم مع آبائهم)) أي: في النار ثم حصل منه توقف في ذلك ﷺ فقال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم أوحي إليه ﷺ أنه لا يُعذَّب أحدٌ بذنبِ غيرِهِ)) كما ورد في قوله

تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]، فحكم بأنهم في الجنة في آخر الأمر وذكر في ذلك حديثًا رواه عبد الرزاق، ولكنَّ الحديثَ ضعيف، كما قال ابن حجر العسقلاني.

الإيمــان بالقــضاء والقــدر

هو الرُّكن الأخيرُ من أركان الإيمان فنقول: الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يَتِمُّ إيمانُ العبد إلا بها، كما ورد في قوله تعالى أدلة كثيرة من القرآن الكريم، ونصوص وردت منها ما يُخبر عن قدر الله، ومنها ما يخبر بنصوص تأمر بالإيمان بالقدر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، كما ورد في (صحيح مسلم) في ما روي عن عمر بن الخطاب في سؤال جبريل # الرسول ﷺ قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيرِهِ وشرِّهِ)).

والأدلة من السُّنة كثيرة كذلك: فمنها ما رواه مسلم عن طاوس، قال: "أدركتُ ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر"، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: "كل شيء بقدرٍ، حتى العجز والكَيْس" والكيسُ، وهو ضد العجز.

وفي روايةٍ أخرى: تقديم الكيس على العجز: "كل شيء بقدر حتى الكيس والعجز"، وما روي عن علي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يُؤمنُ عبدٌ حتى

يؤمن بأربعةٍ: يشهدُ أن لا إله إلا الله، وأني رسولُ الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيرِه وشرِّهِ، حلوهِ ومُرِّهِ)).

تعريف القضاء والقدر من حيث المعنى اللغوي أولًا، والمعنى الاصطلاحي ثانيًا.

القدر معنا لغة: أن تقول: قدرت الشيء بتخفيف الدال، وفتحها. والقدر لغة: القضاء والحكم، ومبلغ الشيء، والتقدير التروية، والتفكر في تسوية الأمر.

أما القَدَر في الاصطلاح: هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سُبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها.

ويُضيف ابن حجر توضيحًا بهذا التعريف للقدر بقوله: المُراد أنّ الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه، أنه يوجد فكل محدث صادر عن علمه وقدرته، وإرادته. والمقصود بقوله: محدث هو كل ما سبقه عدم، وهو ليس بقديم، ونستطيع أن نعبر عنه: بأنه كل مخلوق لله تعالى.

وأما القضاء: فهو مختلف عن القدر، فالقضاء معناه: الفصل والحكم، والقضاء: أصله القطع والفصل، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه، والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق، والقضاء في اللغة يُطلق على عدة وجوه منها: ما أحكم عمله، أو أتم عمله أو نفذ، وكلها ترجع إلى انقضاء الشيء وتمامه.

وأما القضاء اصطلاحًا: فهو الشيء المقضي، والمراد بالمقضي المخلوق، والقضاء من الله تعالى أخص من القدر؛ فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل

والقطع، وهذا القول هو أصح الأقوال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: خلقهن.

فقد وردت كلمة "قضاهن" في قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ بمعنى خلقهن؛ فهنا القضاء بمعنى الخلق وقد وردت نصوص كثيرة في كتاب الله العزيز تؤيد ذلك كما في قوله تعالى: . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧].

ومن الأدلة التي تُرجح هذا الرأي في القضاء والقدر: أنّ القَضَاء في اللغة له نحو معانٍ سبعة أشهرها الحكم، وهو يرجع للفعل؛ فناسب أن يفسر في الاصطلاح بالفعل، وأما القدر: فلم يرد أن معنَاهُ في اللغةِ الفعل؛ فناسب ألا يفسر في الاصطلاح بالفعل، بل يُفسر بالعِلْمِ، وهذا التفسير بمعنى القضاء والقدر قد خالف فيه الأشاعرة؛ فقد نقل صاحب كتاب (جوامع الأنوار البهية) أن القدر عندهم هو إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها، وأحوالها طبق ما سبق به العلم، وجرى به القلم، وأنّ القضاء هو العلم في السابق. وإرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال. فهو من صفات الذات عندهم.

والرأي الأول: هو الرأي المشهور، وله أدلة على صحته من القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ فالقضاء والقدر بناء على الرأي الأول أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلَةِ الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء.

ثم أن الإسلام وضع معالم الإيمان بالقدر؛ فالإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم كل ما هو كائن وكتبه، وشاءه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهذه الحقائق سهل ميسورٌ ليس فيه صعوبة، ولا غموض، ولا تعقيد.

أما البَحثُ في سِرِّ القَدَر، والغوصُ في أعماقه: فإنه يبدد الطاقة العقلية، ويهدرها وإن البحث في كيفية العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق بحث في كيفية صفات الله، وكيف تعمل هذه الصفات، وهذا أمر محجوب علمه عن البشر، وهو غيب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كُنْهِهِ، والباحث فيه كالباحث عن كيفية استواء الله على عرشه.

ولذا فقد نص جمع من أهل العلم على المساحة المحظورة التي لا يجوز دخولها في باب القدر، ومن السنة اللازمة، كما قال الإمام أحمد: الإيمان بالقدر خيره وشرِّهِ، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها لا يقال: "لما ولا كيف".

الإيمان بالقضاء والقدر (٢)

عناصر الدرس

مراتب القضاء والقدر والأدلة عليها

المرتبة الأولى: العلم السابق بالأشياء قبل كونها، والمراد بهذه المرتبة الإيمان بعلم الله ﷻ بكل شيء من الموجودات والمعدومات، والممكنات، والمستحيلات، فعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم، وأحوالهم، وأعمالهم في جميع حركاتهم، وسكناتهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ومن من هو منهم من أهل أجل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ومن قبل أن يخلق الجنة والنار علم دقيق.

فقد يعلمُ الله ﷻ عن كل هذه الأشياء قليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وسرِّهِ وعلانيتِهِ، ومبدئه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته، ومقتضى اسمه العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة علام الغيوب.

أما الأدلة على هذه المرتبة من القرآن الكريم فهي كثيرة أذكر منها قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن الأحاديث: حديثُ عمران بن حصين > قال: ((قال رجلٌ: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار، قال نعم: قال: قال: ففيما يعمل العاملون؟ قال: كلٌّ ميسرٌ لِمَا خُلِقَ لَه)). وفي حديث أبي هريرة > قال: ((سئل رسول

الله ﷺ عن ذراري المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين؛ فعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون)).

أما المرتبة الثانية: فهي مرتبة الكتابة، وهي كتابة الله في اللّوحِ المَحفوظ لكل ما هو كائن؛ فهو سُبحانه علمه لا أول له، وهذا العلم بناء عليه أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فما يحدث شيء في الكون إلا وقد علمه وكتبه قبل حدوثه. والأدلة من القرآن الكريم كثيرة قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. فما يعزب عن ربك أي: ما يغيب عن علمِهِ، وبصره وسمعه، ومشاهدته أي شيء حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مرتبة الكتابة وكثيرًا ما يقرن الله ﷻ بين هاتين المرتبتين.

أما الأدلة من السنة النبوية: ففي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((كنا جلوسًا مع النبي ﷺ ومعه عودٌ ينكت في الأرض، وقال: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل من القوم: له ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا؛ فَكُلٌّ ميسرٌ ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾)) [الليل: ٥].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ((جاء سراقة بن مالك بن جعشم، قال: يا رسول الله، بَيِّنْ لنا ديننا، فكأنا خُلقنا الآن فيما العمل اليوم، فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام،

وجرت به المقادير، قال: ففيما العمل؟)) قال زهير -أحد رواه الحديث-: ثم تكلم أبو الزبير، وهو الراوي عن جابر > بشيء لم أفهمه فسألته ما قال؟ فقال: ((اعملوا فكل ميسر)).

ويَدْخُل في الإيمان في كتابة المقادير خمسة، وهي:

التقدير الأول: الأزلي قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، عندما خلق الله القلم.

التقدير الثاني: التقدير حين أخذ الميثاق على بني آدم، وهم على ظهر أبيهم آدم. ودليل هذا التقدير من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢- ١٧٤].

التقدير الثالث: التقدير العمري عند تخليق النُّطفة في الرحم؛ فيكتب إذ ذاك ذكوريتها وأنوثتها والأجل، والعمل، والشقاوة، والسعادة، والرزق، وجميع ما هو لاقٍ فلا يزادُ فيه، ولا يُنْقَصُ منه.

التقدير الرابع: التقدير الحولي في ليلة القدر؛ يقدر فيها كل ما يكون في السنة إلى مثله ودليله قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

التقدير الخامس: التقدير اليومي: وهو سَوْقُ المقادير إلى المواقيت التي قُدّرت لها فيما سبق، ودليله قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ثم هذا التقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي والحولي تفصيل

من التقدير العُمري عند تخليق النُّطفة، والعمري تفصيل من التقدير العمر الأول يوم الميثاق، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين، والإمام المبين هو من علم الله ﷻ وكذلك منتهى المقادير في آخريتها إلى علم الله ﷻ فانتهت الأوائل إلى أوليته، وانتهت الأواخر إلى آخريته، وأن إلى ربك المنتهى.

أما المرتبة الثالثة من مراتب القدر: فهي مرتبة الإرادة والمشيئة، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما في السموات، وما في الأرض من حركة، ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، ولا يكون في ملكه إلا ما يُريد، أي: أن ما شاء الله كان، ولم يشأ لم يكن، وأن كل ما في السموات وما في الأرض ما من فيه من حركة، ولا سكون إلا بمشيئة الله.

قال العلامة ابن قيم الجوزية: وهذه المرتبة قد دلَّ عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر عليها خلقه وأدلة العقول والعيان، وليس في الوجود شيء إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان، ولم يشأ لم يكن هذا عمود التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، ولم يشأ لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة مرتبة الإرادة والمشيئة من القرآن الكريم كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله

تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

وأما الأدلة من السنة: فمن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص { أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك)). وحديث أبي هريرة { أنّ رسول الله ﷺ قال: ((لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته؛ إنه يفعل ما يشاء لا مُكْرِهَ لَه)).

أما المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي: مرتبة الخلق، والإيجاد، فمرتبة الخلق والإيجاد يجبُ الإيمانُ بها أنها هي المرحلة الرابعة مرحلة من مراحل القدر وهو الإيمان بأن الله ﷻ خالق كل شيء؛ فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحركٍ وحركته، وكل ساكنٍ وسكونه، وما من ذرة في السموات، ولا في الأرض إلا والله ﷻ خالقها، وخالق حركتها، وسكونها.

قال العلامة ابن القيم الجوزية: وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- وعليه اتفقت الكتب الإلهية، والفطر والعقول، والاعتبار، والأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية من الكثرة مما لا يُحصى، أذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [غافر: ٦٢].

والأدلة من السنة حديث وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة أكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة؛ فأملى عليَّ المغيرةُ قال:

((سمعتُ النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)).

تقسيم الإرادة عند أهل السنة

إن الإرادة عند أهل السنة وكما جاء في كتاب الله العزيز على نوعين أحدهما الإرادة الكونية قدرية؛ وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد. التي يقال فيها ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهي الإرادة الشاملة لجميع ما يقع في الكون. ومن أدلتها قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهذه الإرادة لا تستلزم المَحبّة، بل قد يكون بها ما يحبه الله ويَرضاه، وقد يكون بها ما لا يُحبه الله ويرضاه، كما خلق إبليس، وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان، والأفعال المسقوطة له، وهو يبغضها سبحانه وتعالى.

أما النوع الثاني من أنواع الإرادة: فهي الإرادة الدينية الشرعية، وهي تعني محبة المراد، ورضاه، ومحبة أهله والرضا عنهم، وجزاهم بالحسن.

ومن أدلتها هذه: الإرادة الدينية الشرعية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وهذه الإرادة الدينية الشرعية هي المستلزمة للمحبة والرضا، ويبقى هنا الإجابة على إيراد يُورده البعض على الإرادة الكونية القدرية، وهو كيف يريد الله أمرًا،

ولا يرضاه، ولا يحبه، وكيف يشاءه ويكونه، وكيف يجتمع إرادته له، وبغضه وكراهته، ويُجاب على الإيراد هذا بأن المراد نوعان: المراد الأول: مرادٌ لنفسه، وهو المراد لنفسه، وهو المطلوب المحبوب لذاته، وهو ما فيه من الخير، وهو مراد إرادة الغايات، والمقاصد هذا هو المراد لنفسه.

أما المراد لغيره: وهو ما لا يكون مقصودًا للمُريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، ولكن مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده؛ فيجتمع فيه الأمران بغضه من وجهٍ وإرادته من وجه، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما.

ومثال ذلك: كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم المريض أن في قطعهِ بقاء بقية جسده، وكقطع المسافة الشاقة في السفر إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، كالذي يسافر إلى محبوبة، بل العاقل يكتفي في إفاد هذا المكروه، وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته؛ فكيف بمن لا يخفى عليه خافية؛ فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببًا إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

مذهب القدرية في القدر والرد عليه

والقدرية هي التي تنفي القدر، وتزعم أنه تعالى لم يُقدر الأمور أزلًا أي: في القدم في علمه تعالى، من أول ما خلق، وتقول: الأمر أُنُف، بضم الهمزة وضم النون، أي: يستأنفه الله علم حال وقوعه تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، أي: لا علم له سابق، أنف: أي يعلمه وقت وقوعه، حال وقوعه، ولقبوا بالقدرية لخوضهم في القدر؛ حيث بالغوا في نفيه.

ومذهب القدرية في القدر أنّ الله -تعالى عما يقولون- لا يعلم بالأشياء قبل حصولها، ولم يتقدم علمه بها، وقالوا: إنما يعلم اللهُ بالموجودات بعد خلقها وإيجادها، وزعم هؤلاء كذبًا وزورًا: أن الله إذا أمر العباد ونهاهم لا يعلم من يطيعه منهم ممن يعصيه، ولا يعلمُ من يدخُل الجَنّة مِمّن يدخُل النار، حتى إذا استجاب العباد لشرعه، أو رفضوا علم السعداء منهم والأشقياء.

ويرفُض هؤلاء القدرية الضلال الإيمان بعلم الله المتقدم، كما يكذبون بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن تُخلق، وأنه كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماء والأرض، ويخالفون باعتقادهم هذا ما ثبت في الكتاب والسنة؛ فقد روي عن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أخاف على أمتي من بعدي خصلتين تكذيبًا بالقدر وتصديقًا بالنجوم)) وفي حديث آخر يرويه أحمد في مسنده عن ابن عمر عن النبي ﷺ: ((لكل أمة مجوس ومجوس أمتي الذين يقولون: لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدُوهُم)).

وقد أنكر الصحابة { هذه الضلالة، ونهوا الناس عن مخالطتهم ومجالستهم، وأوردوا عليهم النصوصَ الفاضحة لباطلهم، المقررة للقول الحق في باب القدر.

وكذلك يروى عن ابن عمر عنه ﷺ: ((يكون في أمتي خسف ومسخ، وذلك في المكذبين في القدر)) وما ورد في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١- ٤]. فإنه كتاب كتبه قبله أن يخلق السموات والأرض، وكذلك يروى عنه ﷺ أنه قال: ((إن أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان، وما هو كائن إلى الأبد)) وهذه أدلة من الكتاب والسنة في الرد على القدرية، وإبطال رأيهم ومذهبهم.

وقد ذكر الإمام القرطبي: أن هذا المذهب قد انقرض، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم في أن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على وجه الاستقلال.

وهو مع كونه مذهبًا باطلًا إلا أنه أخف من المذهب الأول، ولم يستطع القدرية أن يقفوا أمام الحجج التي ساقها أهل السّنة وعلمائهم، وأهل الرأي فيهم فيما ساقوه لهم من أدلة وبراهين على بطلان مذهبهم، وأنه ضلال.

ففي (سنن أبي داود) عن ابن الديلمي قال: أتيتُ أُبَيَّ بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدرِ؛ فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي، قال: لو أن الله عذب أهل سماواته، وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار، قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فقال مثل ذلك".

معنى الهداية والضلال

أما الهداية والإضلال اللذان بيد الله الأمر الذي اتخذه البعض حجة على أن الإنسان مجبر، مثل قوله تعالى مخاطبًا رسوله محمد ﷺ: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

فالهداية والإضلال اللذان بيد الله عللهما القرآن الكريم بأنهما على سابقة استحقاق للعباد، وبين أسبابها مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣]. وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فأصحاب هذه الصفات الذميمة لا يستحقون الهداية، وهم بعيدون عن رحمة الله، أما الذين يستحقون الهداية، فأمثال أصحاب هذه الصفات، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦].

فالإسلام يُثبت الاختيار والكسب للعباد، ولكن العباد يفعلون بإرادتهم واختيارهم ما يريد أن يفعلوه قال الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧- ٢٩]، فالله ﷻ يُخبر أنّ العِبَاد يفعلونَ بإرادتهم واختيارهم لمن شاء منكم أن يستقيم، ولكن يفعلون ما يشاء الله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وعلى هذا المعنى وردت بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

والواقع: أنّ هذه الآيات الكريمة، وما جرى مجراها تصور حقيقة علمية قررتها كثرة من العلماء وأطلقوا عليها "مذهب الجبرية"، ونسبوا الجبر فيها إلى سنة الكون ومجموع الحياة فيه، بدل أن ينسبوها إلى الله وعلمه وقدرته، وهذه الجبرية تذهب إلى: أن ما لنا من اختيار في الحياة، إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر، وأن القول بهذا الاختيار النسبي يرجع إلى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية علمية أكثر مما يرجع إلى حقيقة علمية، فلو لم يتقرر مذهب الاختيار؛ لتعذر على الجماعة أن تجد أساسًا تقيم عليه تشريعها، وحدودها، وتنظم بذلك حياتها.

هذا الذي تعرض له القرآن في مسألة القدر والاختيار، والرزق والأجل؛ فإنما من يحاول البحث فيما وراء ذلك؛ فهو يطلب شيء من سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، والاشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه، والبحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته، وبين ما تشهد به البداهة من عمل مختار فيما وقع عليه الاختيار من العد لا يجوز الربط بين هذا وهذا. وقد نهينا عن طلب سر القدر، وعن الخوض فيه.

مذهب الجبرية وبيان بطلانه

قد ضل فريق آخر في باب القدر فقالوا: إذا كان الله عالم بكل شيء نفعله وعالمًا بمصيرنا إلى الجنة، أو بمصيرنا إلى النار، وكان هو الخالق لأفعالِنَا، فلماذا نعملُ وننصب، ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أعنَّتِهَا، وسيأتينا ما قدر لنا، شئنا أم أبينا؟ وقد تعمقت هذه الضلالة عند طوائف من العباد، والزهاد، وأهل التصوف بعضهم، ولم تقله طائفة معدودة من طوائف أهل المقالات، وكان ولا

يزال هذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين، وأهل الزيدِ والزندقة، وهذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه؛ فقد رضيه وأحبه.

وزعموا: أنه لا حاجة للعباد إلى العمل، والأخذ بالأسباب، فما قدر لهم سيأتيهم، وزعموا: أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مهب الريح، وكالساقط من قمة جبلٍ شامخٍ إلى وادٍ بعيدٍ غوره، سحيق قعره لا يملك، وهو يتردى فيه من أمره شيئًا؛ لقد ترك هؤلاء العمل احتجاجًا بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال؛ لأن جميع ذلك خلق الله فلما التفريق؟.

إن هذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولًا كثيرة، وحرفت مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي؛ أقعدتها عن العمل، لقد كان من آثار هذه العقيدة الزعم بأن الله أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقة، وعقوق الوالدين وغير ذلك من الذنوب والمعاصي؛ لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله، وأوجده فهو يحبه ويرضاه.

ومن آثارها: أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثير من الموبقات بدعوى أن القدر آتٍ آتٍ، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنصب.

فتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص؛ لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدر لا بد منه، وقد عرض ابن القيم لهذه

الفرقة وضلالاتها في كتابه القيم (شفاء العليل) فقال: ثم نبغت طائفة أخرى؛ فزعمت: أنّ حركة الإنسان الاختيارية، والاختيار كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة مجبور، وأنه غير ميسر لما خلق له، بل هو عليه مجبور ومقصور.

ولقد ظنت هذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته إلى أقبح الظلم -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السموات، وكتكليف الميت أحياء الأموات، والله يعذب عباده أشد التعذيب على فعل ما لا يقدرون على تركه، وعلى ترك ما لا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحد ميسر له، بل هو عليه مقهور.

الرد على الجبرية ببطلان احتجاجهم بحديث احتجاج آدم بالقدر:

وقد يَستدل من قلّ علمه بحديث احتجاج آدم وموسى على الاحتجاج بالقدر في المعايب، وهو حديث صحيح روته كتب الصحاح والسنن؛ فقد روى أبو هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((احتج آدم وموسى -عليهما السلام- عند ربهما فحاج آدمُ موسى)).

دخول المؤمنين الجنة

عناصر الدرس

الرد على الجبرية ببطلان احتجاجهم بحديث احتجاج آدم بالقدر

قد يستدل من قل علمه بحديث احتجاج آدم وموسى فقد روي عن أبي هريرة > قوله: قال رسول الله ﷺ: ((احتج آدم وموسى -عليهما السلام- عند ربهما، فحاج آدمُ موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبط الناس بخطياتك إلى الأرض، فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيًّا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملْتُ عملًا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحاج آدم موسى)).

وليس في هذا الحديث حُجّة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب؛ فآدم # لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وموسى # لم يلم أباه آدم على ذنب تاب منه، وتاب الله عليه منه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم من موسى على المصيبة التي أخرجت آدم وأولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيبة؛ فإن القدر يحتج به عند المصائب، لا على المعايب، فعلى العبد أن يستسلم للقدر إذا أصابته مصيبة: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

أما المذنبون: فليس لهم الاحتجاج بالقدر، بل الواجب عليهم أن يتوبوا، ويستغفروا كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥]، فأرشد إلى الصبر في المصائب والاستغفار من الذنوب والمعايب.

الله ذم إبليس لا لاعترافه بالمقدر في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ [الحجر: ٣٩]، وإنما على احتجاجه بالقدر.

وأجاب ابن القيم عن الإشكال الذي وقع في حديث احتجاج آدم بالقدر، بجواب آخر، فقال: "الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويَضُرّ في موضع؛ فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه. وترك معاودته كما فعل آدم؛ فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد، ومعرفة أسماء الرب وصفاته، وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يُبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة.

يوضحه: أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملتَ عملًا كان مكتوبًا عليَّ قبلَ أن أُخْلَقَ؛ فإذا أذنبَ الرجل ذنبًا، ثم تاب منه توبةً، وزال أمرُهُ حتى كأن لم يكن فأَنَّبَهُ مؤنبٌ عليه، ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق؛ فإنه لم يدفع بالقدر حقًّا، ولا ذكره حجه له على باطل، ولا محظورٍ في الاحتجاج به".

وأما الموضع الآخر الذي يَضُرّ الاحتجاج به؛ ففي حال المستقبل بأن يرتكب فعلًا محرمًا، أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته عليه، وإصراره فيبطل به حقًّا، ويرتكب به باطلًا، كما احتج به الْمُصِرُّونَ على شركهم، وعبادتهم غير الله.

معنى المحو والإثبات في الصحف، وزيادة الأجل ونقصانه

فقد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله، وأحاديث رسول الله ﷺ فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب؛ فما معنى قوله: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: ٣٩]، وإذا كانت الأرزاق والأعمار والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص؛ فما توجيهكم لقوله ﷺ:

((من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره؛ فليصل رحمه))، وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٣، ٤].

وما قولكم في الحديث الذي فيه: ((إنّ الله جَعَل عُمر داود # مائة سنة، بعد أن كان أربعين سنة))؟ والجواب: أن الأرزاق والأعمار نوعان: نوعٌ جرى به القدر، وكُتب في أُمّ الكتاب؛ فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا الذي يزيد وينقص؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه.

ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب؛ فإن الملائكة يكتبون له رزقًا وأجلًا، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما -أي: من الرزق والأجل- والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد؛ فإن الله الملك أن يكتب لعبده أجلًا فإذا وصل رحمه؛ فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه، والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا؟ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم، ولم يتأخر.

يقول ابن حجر العسقلاني: الذي سبق في علم الله لا يتغير، ولا يتبدل، الذي يجوز عليه التغيير والتبديل، ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة، والموكلين بالآدمي، فيقَعُ فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله: فلا محو فيه ولا إثبات، والعلم عند الله.

- قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]: إذا كانت الأمور المقدرة فما معنى قوله وما: ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وقد يحتج بعض

الناس للقدرية وقد يحتج بعض الناس للقدرية النفاه بقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

ويظنون أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعات والمعاصي، وهؤلاء أخطئوا الفهم؛ فالمراد بالحسنات هنا النعم، والمراد بالسيئات المصائب يدلون على صحة هذا سياق النص، قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر والعافية، قالوا: هذه من عند الله، وإذا أصابتهم سيئة مثل: ضرب ومرض، وخوف من عدو، قالوا: هذه من عندك يا محمد، أنت الذي جئت بهذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وابتلينا لأجله بهذه المصائب. قول باطل منهم.

ثم قرر الحق: أن المصائب والنعم لا تخرج عند قدر الله ومشيئته: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ثم بين الحق -تبارك وتعالى- أنّ السيئات التي هي المصائب، ليس لها سبب إلا ذنبُ العبد الذي من نفسه، وأما ما يُصيب العبد من الخير، فلا تنحصر أسبابه؛ لأنه من فضل الله تعالى يحصل بعمل العبد، وبغير عمله من إنعام الله عليه؛ فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم، ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب عليهم أن يكثروا من التوبة والأوبة، والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سبب لهم المصائب والبلايا.

وإذا أنت تأملت في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ علمت أن الحسنة والسيئة هي فعل الله بالعباد التي هي المصائب والنعم أما قوله:

﴿ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ أي: بسببِ ذُنوب العبد، وخطاياه، وهذا وإن كان مقدرًا إلا أن الله قدر أن تكون المصيبة بسبب الذنب.

أما الحسنات والسيئات التي هي أفعال العباد: فلا يقال فيها "ما أصابك"، وإنما يقول: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤]. وإنما قال هنا جاء؛ لأن الحسنة فعل الجائي؛ ولذلك صرح بهذا في جانب الذنوب والمعاصي بقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

كيف يخلق الله الشر ويقدره

إننا نجد بعضًا القدرية يقولون: إن الله منزه عن فعل الشر وأن الواجب على العباد أن ينزهوا ربهم عن الشر وفعله، وهؤلاء خلطوا حقًّا بباطل، فالتبست عليهم الأمور وسأذكر الإجابة عن هذه النقطة باختصار؛ وجواب هذه الشبهة أنّ الله تعالى لا يخلُق الشرّ المَحض الذي لا خَير فيه، ولا مَنفعة فيه لأحد، وليس فيه حكمة، ولا رحمة، ولا يُعذب النّاس بلا ذنب.

وقد بَيّن العُلَمَاء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: ما في خلق إبليس والحشرات، والكواسر من الحكمة والرحمة؛ فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيرًا، وباعتبار آخر شرًّا؛ فالله خلق إبليس؛ لكي يبتلي به عباده؛ فمنهم من يمقته ويحاربه ويحارب منهجه، ويعاديه، ويعادي أولياءه ويوالي الرحمن، ويخضع له.

البحث في القضاء والقدر:

والخلاصة: يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله-: وأصلُ القدر سر الله تعالى في خلقه لم يَطّلع على ذلك ملكٌ مُقَرّب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة

الخذلان وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان؛ فالحذر الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة؛ فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

يقول أبو المظفر السمعاني في ما حكاه عنه ابن حجر العسقلاني: سبيل المعرفة في هذا الباب باب القضاء والقدر التوقيف، على ما ورد في الكتاب والسنة دون محض القياس، والعَقل؛ فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، أي: لم يبلغ في البحث في موضوع القضاء والقدر لا يبلغ إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العَليمُ الخَبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم بما علمه من الحكمة؛ فلم يعلنه لنبي مرسل ولا ملك مقرب.

قال الآجري: لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر؛ لأن القدرَ سرٌّ من أسرار الله ﷻ بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به.

ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر؛ فَيُكَذّب بِمَقاديرِ الله الجارية على العباد؛ فيضل عن طريق الحق، وعلى البَاحِثِ أن يعلم أن هذا الركن من أركان الإيمان وهو: الإيمان بالقضاء والقدر يسوق معتقده دائمًا إلى السعي والعمل؛ فيرى منفعته في السعي والعمل قائلًا: إن لم يُثمر أحدُهما يثمر الآخر، ومؤملًا خيرًا من أسرار القدر؛ لأن المقدر غير معلوم ولا إمارة له غير أفعاله وأعماله، ومن حكمه السامية.

أي: من حكم الإيمان بالقدر أن الله تعالى دعا الأنفس البشرية إلى الإيمان به ليكونوا موقنين بالقدر؛ فيكون إيمانهم بالقدر مخففًا للنفس لجزعها إذا نزلت بها

النوائب، مثبتًا لها عند ملاقاة المصائب، وتجشم المصاعب؛ فإذا هاجم اليأس قلب امرئً من مطلب يطلبه، أو قامة العقبات دون رغبة يرغبها، قام الإيمان بالقدر، والاعتماد على الله لنجدته؛ فهو يفتح له الأبواب المغلقة، ويذلل المصاعب الشديدة؛ فيأخذ العُدّة من حَيثُ أمره الله باتخاذِها كما أنه عند التوفيق في أعماله، وما يطرأ عليه من مفاجآتٍ سارةٍ لا ينسى أن يزينها بالتواضع، ولا يفقد رشده من شدة الفرح.

ولهذا المعنى الرائع يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣].

فالله يخبر في هذه الآية بأن ما يصيب الأرض والأنفس ثابت في كتاب، ثم طلب من الإنسان ألا يُهلكه الحزن، وألا تذهب نفسه حسرات إذا أصابه شر؛ لأن هذا مقدر له في كتاب، ولم يكن هناك بُدٌّ أن يختاره، وإذا قدر له خير عليه أن يذكر أن هذه النعمة ثابتة في كتاب لم يكن هناك بد من حصولها، ولم يكن هناك بد من اختيارها؛ فيجب ألا يطغيه الفرح، وألا تطغيه النعمة، والاعتقاد بالقدر يتبعه خُلق الشّجاعة والبسالة، ويحليها بحلي الجود والسخاء.

فالذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها، كما يشاء كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمته، أو ملته بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر ما ينفق من ماله في تعزيز الحق، وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية؟ هذه هي النتيجة، والنتائج الحقيقية التي تأتي من الإيمان بالقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان.

قائمة المراجع العامة

١. (**شرح العقيدة الطحاوية**)

عليّ بن عليّ بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرناءوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م.

٢. (**لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**)

محمد بن أحمد السفاريني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

٣. (**عقيدة المؤمن**)

جابر بن موسى أبو بكر جابر الجزائري، القاهرة، مطبعة النهضة الحديثة، ١٩٧٦م.

٤. (**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**)

شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الحديث، ١٩٩٤م.

٥. (**الاعتقاد إلى سبيل الرشاد**)

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط/١ ـ ١٤٠٤هـ.

٦. (**التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**)

محمد بن أحمد القرطبي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤١١هـ.

٧. (**يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار**)

صديق حسن خان، القاهرة، دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

٨. (**عالم الملائكة الأبرار**)

عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس، ١٩٩١م.

٩. (**الرسل والرسالات**)

عمر سليمان الأشقر، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٢م .

١٠.(**اليوم الآخر**)

عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس، ١٩٨٢مـ .

١١. (**القضاء والقدر**)

عمر سليمان الأشقر، الأردن، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م .

١٢. (**إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**)

محمود بن عبد الله التويجري، مطابع الرياض، ١٩٧٤م.

١٣. (**أشراط الساعة**)

يوسف بن عبد الله الوابل، الدمام، دار ابن الجوزي، ١٤٢٢هـ.

